أبو خلدون ساطع الحصري

آراء وأحاديث
في
الوطنية والقومية

مطبعة الرسالة
القاهرة — ١٩٤٤

١٠

أبو خلدون ساطع الحصري

هدية
من المؤلف
محمد حسن حمد(؟)

آراء وأحاديث
في
الوطنية والقومية

مطبعة الرسالة
القاهرة — ١٩٤٤

مقدمة

هذه مجموعة محاضرات ومقالات تحوم حول « الوطنية والقومية » بوجه عام ، وحول « الوطنية العربية والقومية العربية » بوجه خاص

محاضرات ومقالات ... ألقيت فى مختلف نواحى بغداد ، ونشرت فى بعض الجرائد والمجلات ... لشرح عناصر القومية وعوامل الوطنية ، ولمناقشة أهم الآراء والنظريات التى سردت فى هذا الباب

رأيت أن أجمعها فى هذا الكتاب ، لنشرها بين الناس فى هذه الأيام التى زاد خلالها اهتمام الجميع بالمسائل القومية والقضايا العربية اهتماماً مشكوراً ؟

[دمشق ، آذار ١٩٤٤] أبو خلدون

فهرس الكتاب

الوطنية والقومية

بحث تمهيدى عام

— ١ —

الوطنية والقومية من أهم النزعات الاجتماعية التى تربط الفرد البشرى بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها ويضحى فى سبيلها

ومن المعلوم أن الوطنية هى حب الوطن ، والشعور بارتباط باطنى نحوه ؛ والقومية هى حب الأمة ، والشعور بارتباط باطنى نحوها

والوطن — من حيث الأساس — إنما هو قطعة من الأرض ؛ والأمة — فى حقيقة الأمر — إنما هى جماعة من البشر

فنستطيع أن نقول — بناء على ذلك — إن الوطنية : هى ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن ؛ والقومية ، هى ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة

ولكن ، مما تجب ملاحظته فى هذا الصدد أن مفهوم الوطنية لا يختلف — فى الحقيقة — عن مفهوم القومية كل هذا الاختلاف . ذلك لأن حب الوطن يتضمن — بطبيعته — حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن ؛ كما أن حب الأمة يتضمن — فى الوقت نفسه — حب الأرض التى تعيش عليها تلك الأمة

ولهذا السبب يتقارب مفهوم الوطنية من مفهوم القومية تقارباً كبيراً .

غير أننا إذا أردنا أن نحيط علماً بماهية هذين المفهومين إحاطة تامة ، يجب علينا أن نلاحظ علاقة كل منهما بمفهوم ثالث ، هو مفهوم الدولة ...

فالدولة هيئة سياسية يعرفها علماء الحقوق والاجتماع بقولهم « جماعة من البشر ، يعيشون على أرض معينة مشتركة ، مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة »

يظهر من هذا التعريف المجمل أن مفهوم الدولة يرتبط بمفهوم الوطن من جهة و بمفهوم الأمة من جهة أخرى ، فيكون بذلك بمثابة خط واصل بين هذين المفهومين . ولكن هذا الارتباط لا يكون على نمط واحد فى كل الدول والأمم وفى جميع أدوار التاريخ . بل إنه يلبس أشكالاً متنوعة ، فيختلف بين أمة وأمة ، و بين دور ودور

ونحن نستطيع أن نلخص أهم هذه الأشكال ، كما يلى :

(١) — إن الأمة قد تؤلف دولة واحدة مستقلة ، لها علم خاص وحكومة خاصة وجيش خاص . فالأرض التى تسود عليها تلك الدولة تكون وطناً للأمة بأجمعها ، فيشترك جميع أفراد الأمة وجميع تابعى الدولة فى حب ذلك الوطن وتبجيله وخدمته

فى هذه الحالة ، تنطبق الوطنية على القومية تمام الانطباق ، ولا يختلف مطالبها عن مطالب القومية اختلافاً فعلياً ؛ فيكون الوطن « مجموع الأراضى التى تعيش عليها الأمة ، وتدير سياستها الدولة »

والوطنية تماثل القومية تمام المماثلة ، ولا تخالفها أو تعارضها بوجه من الوجوه

(ب) — غير أن الأمة قد تؤلف دولاً عديدة ، كل واحدة منها مستقلة بنفسها . ففى هذه الحالة توجد كل دولة من هذه الدول وطنية خاصة بها ، وتسعى إلى تقوية هذه الوطنية الخاصة بكل قواها . بينما القومية تتجاوز حدود هذه الدول المفترقة ، وتسعى إلى ربطها جميعها برباط معنوى عام . فلا ترتاح القومية — فى هذه الحالة — إلى الوطنيات الراهنة تمام الارتياح ، بل تنزع إلى إنشاء دولة عامة تجمع وتوحد تلك الدول المتعددة بشكل من الأشكال وتعمل بذلك على توليد « وطنية جديدة عامة » تسمو فوق جميع الوطنيات الراهنة الخاصة

فنستطيع أن نقول إن النزعة القومية فى مثل هذه الحالات — تولد فكرة « وطن معنوى مثالى » أوسع وأعظم وأعلى من الأوطان الراهنة المذكورة ؛ فتصبو النفوس إلى تحقيق هذا « الوطن المرقوب والمرغوب » وتندفع وراء إخراجه من عالم الفكر والتمنى إلى عالم الحقيقة والواقع

ومن البديهى أن القومية — فى هذه الحالة لا تنطبق على الوطنية تمام الانطباق ، بل تختلف عنها اختلافاً بيناً ، لأنها تتطلب تقديم مصالح الأمة العامة على مصالح الأوطان الخاصة ، وتثير مطالب الوطن الموحد المرقوب إلى جانب مطالب الأوطان الراهنة

(ج) — وقد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها ، وتابعة لدولة أجنبية عنها . وفى هذه الحالة، تفرض الدولة الحاكمة على جميع أفراد الأمم الخاضعة لها « وطنية عامة واسعة النطاق » ؛ وتطلب منهم

أن يرتبطوا بها وبسائر الأمم الخاضعة لها برباط هذه الوطنية ، وأن يخدموها بدافع هذه الوطنية ، أما القومية فتعارض ذلك أشد المعارضة ، وتولد فى نفوس الأفراد نزوعاً إلى الاستقلال عن الدولة المذكورة ، وتجعلهم يصبون إلى الانفصال عن الأمة الحاكمة . ويسعون وراء تكوين دولة خاصة بهم . فيحدث من جراء ذلك نزاع وخصام بين الوطنية التى تفرضها الدولة الحاكمة و بين القومية التى يشعر بها أفراد الأمة المحكومة . فتكون مرامى القومية حينئذ أضيق نطاقاً من أهداف الوطنية ؛ فإن الوطنية التى تغذيها الدولة تطلب من أفراد الأمة الارتباط بجميع أراضى الدولة ؛ بينما القومية تحمل هؤلاء على الاهتمام بالقسم الخاص بهم دون غيره ، إنها تجعلهم يتوقون إلى الانفصال عن الدولة المذكورة — وعن الأمم الأخرى التى تؤلفها — وينزعون إلى الاستقلال بوطن خاص أصغر من الوطن العام ، فى ظل دولة خاصة أصغر من الدولة القائمة فنستطيع أن نقول : إن القومية فى هذه الحالة ترمى إلى تكوين وطنية جديدة خاصة أضيق نطاقاً من الوطنية الراهنة العامة

(د) — ولكن الأمة قد تكون محرومة من الاستقلال و — فى الوقت نفسه — مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية عنها . من الطبيعى أن كل دولة من هذه الدول الحاكمة — فى مثل هذه الأحوال — تفرض على جزء الأمة الخاضع لها وطنيتها هى ، وتعمل على ربط أفرادها برباط هذه الوطنية ، ولكن روح القومية فى تلك الأمة المجزأة تعارض ذلك معارضة شديدة ، وتحمل جميع أفراد الأمة فى جميع الأقسام المذكورة على

مقاومة الحالة الراهنة ، وذلك بالاستقلال عن جميع الدول الحاكمة من جهة و بالاتحاد فيما بينها من جهة أخرى ، لتكوين دولة قومية جديدة ، تجمع أقسام الأمة المتجزئة تحت لواء واحد ، على أرض وطن قومى وَاحد

هذه هى الأشكال السياسية الأساسية التى تحدد علاقة الأمة بالدولة والوطن ، وتعيِّن علاقة القومية بالوطنية

إن الأمة السويدية — فى الحالة الحاضرة — من أبرز نماذج الشكل الأول . وأما الأمة الألمانية قبل اتحادها سنة ١٨٧٠ فكانت من أحسن الأمثلة على الشكل الثانى ، والأمة البلغارية فى عهد خضوعها للدولة العثمانية كانت من أمثلة الشكل الثالث ، وأما الأمة البولونية — فى الفترة التى مضت بين اقتسامها السابق و بين الحرب العالمية الأولى — فكانت من أحسن نماذج الشكل الرابع

— ٢ —

يتبين من ذلك كله : أن القومية تنطبق على الوطنية تارة ، وتختلف عنها تارة ؛ وتأثيرها ينضم إلى تأثير الوطنية أحياناً ، و يخالف ذلك التأثير أحياناً أخرى ؛ ولكننا إذا تركنا هذه الفروق جانباً وألقينا نظرة إجمالية على سير الوقائع التاريخية ، استطعنا أن نقول : إن القومية أصبحت من أهم العوامل التى تؤثر فى تطور الدول وتكون الأوطان منذ أوائل القرن التاسع عشر

وأما قبل ذلك — لا سيما فى القرون الوسطى وفى القرنين الأولين من القرون الأخيرة — فكان الأورو بيون أنفسهم يربطون مفهوم

الوطن بمفهوم الدولة ربطاً وثيقاً ، ولا يفرقون بينهما أبداً . زد على ذلك أنهم كانوا يخلطون بين الدولة و بين الوطن والملك أيضاً . فالوطنية حينئذ لم تكن تعنى شيئاً غير الارتباط بالملك والمملكة ، وغير الإخلاص لصاحبها . إنها كانت تتطلب الخدمة فى سبيل مجد الملك وشرف المملكة ، وبذل المال والنفس فى سبيل إدامة ذلك الشرف وتوسيع هذا المجد

وكثيراً ما كانت البلدان والأمصار تنتقل من حكم إلى حكم ، ومن مملكة إلى مملكة ، من جراء زواج الملوك ومصاهرة الأمراء والبيوتات المالكة ، وإذا ما انتقلت مقاطعة من المقاطعات من مملكة إلى أخرى — لمثل هذه الأسباب — كان يصبح من الواجب على أهل المقاطعة أن يطيعوا ملكهم ويتعلقوا بمملكتهم الجديدة ؛ وبتعبير آخر : كان يترتب عليهم — حينئذ — أن يكتسبوا وطنية جديدة مختلفة عن وطنيتهم السابقة

وأما السبب الأصلى لهذه الأحوال كلها ، فكان الاعتقاد القائل بأن الملوك إنما يحكمون بحق موهوب من الله ، ويرون شؤون الدولة والرعية بمشيئة الله

وعند ما تزعزع هذا الاعتقاد ثم زال ، كان من الطبيعى أن يتبدل كل شىء فى هذا المضمار تبدلاً كلياً ، فأخذت فكرة القومية تلعب دوراً هاماً فى تكوين الدول وتقرير الأوطان . ولذلك شهد التاريخ تفكك أوصال بعض الدول من جهة ، واتحاد أقسام بعض الأمم من جهة أخرى ، — تحت تأثير النزعات القومية — ، كما شهد تغلب حقوق القوميات على الحقوق التى كانت تعزى إلى الملوك و إلى الفتوحات

— ٣ —

قلنا إن الوطنية والقومية من النزعات الاجتماعية ، ويجب أن نلاحظ فوق ذلك ، أن كل واحدة منهما — مثل سائر النزعات النفسية — تولد بعض العواطف وتؤدى إلى بعض الأفعال : إنها تولد فى نفوس الأفراد بعض العواطف ، وتحملهم على القيام ببعض الأعمال .

إن الإنسان يحب أمته — تحت تأثير النزعة القومية — ويشعر نحوها بارتباط قلبى شديد ، ويعتبر نفسه جزءاً منها ، فيفرح لكل ما يزيد مجدها ، ويتألم من كل ما يقلل قوتها ، إنه يصبو إلى رؤيتها قوية وناهضة ويفتخر بأمجادها ، ويتألم لمصائبها ، وينزع إلى عمل كل ما يستطيع عمله للدفاع عن كيانها وعن كرامتها

كما أن الإنسان يحب وطنه — تحت تأثير النزعة الوطنية — فيشعر نحوه بتعلق قلبى عميق ، فيفرح لسعادته ، ويتفجع عند نكبته ، ويسعى لخدمته . حتى إنه لا يتأخر عن التضحية فى سبيله ، إذا اقتضى الحال

وأما إذا بحثنا عن منشأ هاتين النزعتين ، فنستطيع أن نرجعهما — من حيث الأساس — إلى حب الموطن وحب الأهل . ونستطيع أن نقول : إن منبع الوطنية — وبذرتها الأولى — حب الموطن ؛ وأما منبع القومية وبذرتها الأصيلة ، فحب الأهل

ذلك لأن الإنسان يشعر بتعلق عاطفى وارتباط قلبى بالمحل الذى ولد ونشأ وترعرع فيه ؛ كما يشعر بتعلق باطنى نحو أهل ذلك المحل ونحو جميع الناس الذين عايشهم وعاشرهم وألفهم فى صغره وصباه

كلنا يعلم أن الأطفال الصغار يظهرون تعلقاً شديداً بالمحل الذى

ينامون ويلعبون فيه : إنهم يرتبطون ارتباطاً معنوياً بالغرفة والدار والحديقة والشارع التى تكون مسرح حياتهم وساحة ألعابهم ؛ إنهم يحسبون تلك المحلات ملكاً خاصاً بهم ، ويشعرون بنوع من الراحة والاطمئنان حينما يكونون فيها ، ويشعرون بشىء من الغربة والقلق حينما يبتعدون عنها . وهذا الشعور يولد فى نفوسهم حنيناً نحو مرباهم ، وتشوقاً للعودة إليه . كما أنهم يتعلقون تعلقاً شديداً بأمهاتهم وآبائهم وأترابهم وجيرانهم ، وبكل من يعايشونهم ويعاشرونهم مدة من الزمن . إنهم يشعرون بأمن واطمئنان فى حضور هؤلاء ، بينما نجدهم كثيراً ما يعرضون وينفرون من الغرباء .

إن هذا الارتباط المعنوى الذى يتولد فى نفوس الأطفال نحو الأهل والمربى ، يتوسع بالتدريج ، ويشمل شيئاً فشيئاً ، الحارة والقرية والمدينة ، وأهل الحارة وأهل القرية وأهل المدينة

إن هذه الصلة المعنوية والعلاقة النفسية تظهر نفسها بقوة أعظم ، حينما يغترب المرء عن مسقط رأسه ومسرح صباه ، ويفارق أهله وذويه ؛ ولا سيما حينما يلاقى فى ديار الغربة أحداً من أبناء بلدته ، أو يسمع شيئاً من أخبارها ، وعلى الأخص حينما يعود إليها بعد فراق واغتراب

ونستطيع أن نقول إن الإنسان يرتبط بموطنه وبأهله بروابط معنوية كثيرة ومتنوعة . فإن كل جزء من أجزاء حياته ، يتعلق بزاوية من زوايا بيته وبلدته . فكل زاوية من زوايا ذلك البيت — وكل قسم من أقسام تلك البلدة — يقوم مقام تذكار مادى يثير فى نفسه ذكريات

صفحة من صفحات حياته الماضية ، أو ذكريات منقبة من مناقب النفوس العزيزة عليه

ولهذه الأسباب كلها ، نجد أن البلدة التى تكون مسقط رأس الإنسان ومرباه ، تشغل مكانة خاصة فى معنوياته ، بمناظرها وعاداتها ولهجاتها ، وبكل ما لها من خصائص وأوصاف

وبما أن تعلق المرء ببلدته وبأهله ، يكون ذا جذور عميقة فى أغوار نفسه ، فأننا نجد أن هذا التعلق يكتسب أحياناً شكلاً مرضياً ، ويولد مرضاً خاصاً ، يعرف باسم « داء الصلة — نوستالجيا » Nostalgia . إن بعض الناس يصابون بهذا الداء حينما يفارقون أهليهم ويغتربون عن بلدتهم لأول مرة : لأن أذهانهم ومخيلتهم تشتغل بذكرياتها بشدة غريبة ؛ فيشعرون نحوها بحسرة عصبية وحنين مرضى . وقد يستولى عليهم نوع من الوسواس ، فيخيل إليهم أنهم سائرون نحو الموت بعيدين عن بلدتهم وعن أهليهم . وتحت تأثير هذا الحنين المرضى ، يفقدون شهية الطعام ، ويصابون بأرق شديد ، ولا يشفون من هـذه الاختلالات النفسية والعصبية ، إلا حينما يعودون إلى بلدتهم ويصلون أرحامهم ويلاقون أهليهم وأصحابهم

إن تيسر أسباب الانتقال ووسائل المخابرة ، قد عوّد الناس على الأسفار ؛ فقلل الأشكال المرضية لهذه الرابطة المعنوية ؛ ومع هذا فإنه لم يقض عليها بتاتاً

ومن الأمور الثابتة ، أن الـكثيرين ممن تعودوا الأسفار يشعرون بسرور وفرح حينما يلاقون فى أسفارهم ما يذكرهم بموطنهم ومسقط

رأسهم ؛ ويشعرون بهياج ونشوة ، حينما يعودون إليه ويلتقون بأهليهم وخلانهم بعد مدة من الاغتراب

إن حب الوطن يشبه حب الموطن الذى شرحناه ، وحب الأمة يماثل حب الأهل الذى وصفناه . فنستطيع أن نقول : إن حب الوطن إنما يتولد من توسع دائرة حب الموطن ، كما أن حب الأمة إنما يتولد من توسع نطاق حب الأهل . فإن الإنسان ينظر إلى موطنه كجزء من الوطن ، كما ينظر إلى أهله وأهل بلدته كفرع من المواطنين . ويحب وطنه ومواطنيه ، كما كان يحب بلدته وأهل بلدته ؛ ويفتخر بوطنه و بأمته ، كما كان يفتخر ببلدته و بأهله وبذويه

ومع هذا ، يجب أن يلاحظ فى هذا الصدد : أن علاقة المرء بالوطن لا تنشأ من تفاعل مادى محسوس ، كما تنشأ علاقته بمسقط الرأس ؛ وكذلك حدود هذا الوطن لا تتعين بالمشاهدة المباشرة ، كما يحدث ذلك فى مسقط الرأس . وذلك لأن الفرد لا يكون قد شاهد ـ عادة ـ إلاّ قسما صغيراً من الوطن ، ولا يكون قد عاشر إلاّ فئة قليلة من أبناء الأمة . ولذلك نستطيع أن نقول : إن الروابط التى تربط المرء بوطنه و بأمته ، تنشأ من عوامل فكرية ومعنوية ، أكثر مما تنشأ من أسباب حسية ومادية

إن العوامل التى تربط الأفراد بعضهم ببعض وتحبب بعضهم إلى بعض — فتؤلف منهم أمة واحدة — كثيرة ومتنوعة جداً : الاعتقاد بوحدة الأصل والنشأة ، والاشتراك فى اللغة والتاريخ ، والتشابه فى العواطف والعوائد ، والتماثل فى ذكريات الماضى ونزعات الحال وآمال الاستقبال ...

كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التى تولد التقارب والتعاطف ، وتكوّن الأمم والأوطان .

— ٤ —

لقد شبه بعض المفكرين المجتمعات البشرية ، منذ القرون الأولى ، بالعضويات الحيوانية والنباتية . ولكن الميل إلى هذا التشبيه قوى بوجه خاص ، حينما اكتشف علماء الطبيعة حقيقة العضويات الحيوانية والنباتية : فقد عرفوا أن العضويات بأجمعها تتألف من أنسجة ، وأن الأنسجة تتكون من عناصر حية ، تعرف باسم الخلايا Cellules أو المصوِّرات Plastides ؛ وأن كل واحدة من هذه العناصر التى تؤلف العضوية ، حية فى حد ذاتها ؛ تتغذى فتنمو ، وتتكاثر فتموت ، مستقلة عن غيرها

وقد زاد اكتشاف هذه الحقيقة وجوه الشبه بين العضويات والمجتمعات، لأنه برهن على أن كل عضوية من العضويات الحيوانية والنباتية أيضاً ، إنما هى نوع من المجتمع ؛ لأنها بمثابة مجتمع مؤلف من خلايا أو مصوِّرات فاشتد النقاش لذلك بين العلماء الذين يشبهون المجتمعات بالعضويات و بين الذين يعارضون هذا التشبيه . وقد حاول كل فريق أن يظهر وجوه الشبه أو وجوه الخلاف بين المجتمعات والعضويات ، حسب نزعته الفكرية

إننى لا أرى مجالاً — ولا لزوماً — إلى بحث هذه المسألة ومناقشتها هنا بتفاصيلها . غير أنى أقول : إن المجتمعات البشرية تختلف عن العضويات الحيوانية اختلافاً أساسياً — بالرغم من كثرة وجوه الشبه بينهما — وذلك لأن ارتباط الخلايا فى العضويات ارتباط مادىّ ، يخضع

لقوانين المادة من حيث الزمان والمكان ؛ على حين أن ارتباط الأفراد في المجتمعات إنما هو ارتباط معنوى ، لايخضع لقوانين الزمان والمكان والمادة

فإن الخلية الواحدة تكون جزءاً من عضوية واحدة ، ولا يمكنها أن تنتسب إلى عضويتين مختلفتين فى وقت واحد . غير أن الفرد الواحد فى الحياة الاجتماعية ، قد ينتسب إلى مجتمعين مختلفين فى وقت واحد ؛ لأن الرابطة التى تربط أفراد البشر – بعضهم ببعض – فى المجتمعات ، لم تكن من نوع الروابط المادية ، فلا تتبع قوانين المادة ، ولا تتقيد بقيود التحيز وعدم التنافذ

هذه هى – فى نظرى – أهم الفروق التى تميز المجتمعات البشرية من العضويات الحيوانية والنباتية

فكل فرد من أفراد البشر – ينتسب عادة إلى عدة جماعات – فى وقت واحد . وذلك لأن كل نوع من أنواع الروابط الاجتماعية ، يؤلف جماعة من نوع خاص ، ويدخل الفرد فى تلك الجماعة . وكل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية – من الأسرة والمهنة واللغة ، إلى الميول الفنية والاعتقادات الدينية والاتجاهات المذهبية – يولد رابطة خاصة ، تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وتكوّن منهم جماعات ومجتمعات متنوعة ، بعضها متلائم و بعضها متنافر ، بعضها تابع و بعضها متبوع

وكل فرد من الأفراد ، يرتبط بجماعات من أبناء نوعه بعدة أنواع من هذه الروابط المعنوية ؛ فينتسب إلى عدة أنواع من هذه الجماعات والمجتمعات . وهذه الروابط المتنوعة تتجاذب مشاعر الفرد وميوله ، وتجعله يسير وكأنه مدفوع بدوافع عديدة ، ومجذوب بجواذب متنوعة .

غير أن قوة كل نوع من أنواع هذه الروابط وقيمتها ، تختلف بين فرد وفرد ، كما تختلف بين حال وحال ، وبين عهد وعهد ...

ولكننا إذا لاحظنا أنواع الروابط التي تكوّن الجماعات السياسية — على وجه أخص — ، نجد أن أقواها وأفعلها ، هي نزعة القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ ... وهي التي تتغلب على كل ما سواها ، وتستتبعها استتباعاً ...

عوامل القوميـــة

[من محاضرة ألقيت فى نادى المعلمين ببغداد]

إذا ألقينا نظرة عامة على الانقلابات السياسية التى حدثت منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وتحرينا أهم العوامل التى أدت إلى تلك الانقلابات ، نجد أنها تتلخص فى عبارة وجيزة ، هى : مبدأ القوميات .

فإن النزعات القومية التى كانت ضئيلة الأثر وقليلة الظهور حتى ذلك التاريخ ، أخذت تتقوى بعد ذلك بسرعة هائلة ، وأصبحت تفرض نفسها على اتجاهات السياسة ، وتسيطر على سير التاريخ . فكثير من الأمم المغلوبة على أمرها أفاقت من سباتها ، وأخذت تشعر بكيانها الخاص ، وصارت تسعى إلى تدعيم هذا الكيان بالحكم الذاتى أولا ، وبالاستقلال التام ثانياً . على حين أن السلطنات التى كانت قائمة قبلا ، أخذت تتقلص شيئاً فشيئاً ، إلى أن اندرس معظمها ، تاركا محله لدول قومية عديدة . وبدأت هذه القوميات تختلف وتتنازع ؛ وظهرت من جراء ذلك مسائل الأقليات وما يتبعها من المشاكل والاختلافات

وإذا استعرضنا سير هذه الانقلابات ، وجدنا أن جماعات من الناس اعتبرت نفسها من قومية واحدة ، وأخذ أفرادها يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة ، متميزة من الأمم الأخرى ، وصاروا ينزعون إلى الاستقلال عنها

فيجدر بنا أن نتساءل : ما هى العوامل التى تجعل بعض الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة ، متميزون من أبناء الأمم الأخرى ؟ وبتعبير

أقصر : ما هى العناصر التى تكون الأمم ، والعوامل التى تميز بعضها من بعض ؟

إن الأجوبة التى أعطيت على هذه الأسئلة اختلفت كثيراً باختلاف الباحثين . ذلك لأن هذه الأبحاث لم تبق فى نطاق المسائل العلمية البحت ، بل تأثرت كثيراً بنزعات السياسة ومطاليبها

فإن كل جواب على هذه الأسئلة لا بد من أن يؤيد أو يفند إحدى النظريات السياسية ؛ ولا بد من أن يأتى موافقاً أو مخالفاً لمطاليب أمة من الأمم أو دولة من الدول

ولذلك نجد أن العلماء والباحثين اختلفوا فى هـذا الأمر اختلافاً كبيراً ، بسبب اختلاف نزعات الأمم التى ينتمون إليها . حتى إننا كثيراً ما نجد بينهم من لم يتورع عن جمع المتناقضات أيضاً ؛ فإنهم يقولون بنظرية فى بعض القضايا ، و بنظرية مخالفة لها فى قضايا أخرى مماثلة لها ، وذلك حسب ما تقتضيه منافع الدول التى ينتسبون إليها

فيجدر بنا أن ندرس هذه المسائل بحذر شديد ، وأن نناقش الآراء والنظريات التى حامت حولها بانتباه تام .

— ١ —

فلنبحث إذن : ما هى العناصر التى تكوّن القومية وتؤلف الأمة ؟

إن أول ما يخطر على البال — و يلفت النظر — فى هـذا الصدد ، هو وحدة الأصل والمنشأ

يظن الناس عادة أن كل أمة من الأمم تنحدر من أصـل واحد ؛

ويزعمون أن جميع أفراد الأمة الواحدة يكونون بمثابة الأشقاء المنحدرين من صلب أب واحد . ولذلك نجدهم يكررون فى كل مناسبة كثيراً من التعبيرات الدالة على هـذا الزعم ، كقولهم : « أجدادنا ، آباؤنا ، إخواننا . . . »

غير أن هذا الظن لا يستند إلى أساس صحيح . لأن جميع الأبحاث العلمية — المستمدة من حقائق التاريخ ومن مكتشفات علم الإنسان ومكتسبات علم الأقوام — لا تترك مجالا للشك فى أنه لا يوجد على وجه البسيطة أمة تنحدر من أصل واحد فعلا ؛ ولا توجد على الأرض أمة خالصة الدم تماماً

فإن جميع الأمم التى نعرفها الآن قد تـكوّنت من تداخل عشرات العروق والأجناس ، فى مختلف أدوار التاريخ ، حتى إن الأجناس التى عاشت فى القرون المتقدمة على أدوار التاريخ ، كانت أيضاً متخالطة ومتداخلة جداً

ونستطيع أن نقول بكل جزم وتأكيد : إن وحدة الأصل والدم فى الأمم إنما هى من الأوهام التى استولت على العقول والأذهان ، من غير أن تستند إلى دليل أو برهان

لا الإنكليز ، ولا الروس ، ولا الألمان ، ولا البلغار . . . كانوا متجانسين من حيث الأصل والنسل . بل إن كل واحدة من هذه الأمم إنما تـكونت من تداخل عشرات الأقوام . حتى الأمة الفرنسية نفسها لا تنحدر من أصل واحد : هذه الأمة التى كانت أسبق الأمم الأوربية إلى تـكوين وحدة سياسية قومية ، حتى هذه الأمة نفسها إنما تـكونت

من اختلاط عدد كبير من الأقوام والأجناس . وقد تبين من الأبحاث العلمية التى لا مجال للشك فيها أن عدد الأقوام التى كونت فرنسيي اليوم يتجاوز الستين . ولهذا فأننا إذا قارنا سكان شمال فرنسا بسكان جنوبها — من حيث الأوصاف البدنية والخصائص الجنسية — لوجدنا بينهم بوناً شاسعاً جداً . فإن مشابهة أهالى بعض المقاطعات الشمالية — كالبره تانى والنورماندي مثلاً — للأنكليز والألمان ، أكثر بكثير من مشابهتهم لأهالى سائر المقاطعات ، وبخاصة أهالى المقاطعات الجنوبية

إن كل الأبحاث العلمية المتعلقة بالأزمنة التاريخية والقبتاريخية Préhistorique تدل دلالة قاطعة على أن تداخل الأقوام والأجناس استمر بدون انقطاع فى جميع أقسام فرنسا منذ أقدم الأزمنة . فأصبح الآن من الصعوبة بمكان تعيين « المنبع الأصلى » الذى ترجع إليه القومية الفرنسية وتنحدر منه . فقد اختلف علماء التاريخ فيما بينهم اختلافاً كبيراً حينما حاولوا تعيين هذا المنبع الأصلى : ما هو الشعب الذى يستحق أن ينعت باسم « أجداد الفرنسيين الحاليين ؟ » هل هم الغاليون ؟ أم هم الرومان ؟ أم هم الفرنك ؟ إن كل واحد من هـذه الحلول الثلاثة صار أساساً لنظرية من نظريات التاريخ . لقد ظل العلماء والمفكرون يتناقشون فى ذلك مدة طويلة إلى أن عرفوا ما فى هـذا النقاش من العبث : إن جميع هؤلاء الأقوام — وعشرات أمثالهم — قد اشتركوا فى تكوين الأمة الفرنسية ، فإذا ما بحثنا عن أصل الفرنسيين يجب أن نبحث عن العنصر الذى كان أشد تأثيراً فى هذا التكوين ، من الوجهة المعنوية ، لا من الوجهة المادية . ويجب أن نعلم العلم اليقين بأن الفرنسيين إذا

انتسبوا إلى الأقوام اللاتينية ، فإنما ينتسبون إليهم من وجهة اللغة والثقافة ، لا من جهة الأصل والدم . وذلك لأن من الحقائق الثابتة علمياً أن دم اللاتين والرومان فى فرنسا أقل بكثير من دماء الجرمان

وهذا هو الحال فى جميع الأمم ؛ فإنها جميعا مختلطة ومتداخلة من حيث الأصل والدم . . .

إننى أشبه الأمم من هذه الوجهة بالأنهر العظيمة . فمن المعلوم أن كل نهر من الأنهر تجرى فيه مياه أتت من منابع ومصادر وروافد مختلفة . والأنهر الكبيرة تكون كثيرة المنابع وعديدة الروافد بوجه عام . وإذا بحثنا عن منبع نهر من الأنهر ، فإنما نفعل ذلك بالنسبة إلى ما هو الغالب والأساسى ، ولا نعنى بذلك أن جميع مياه النهر تأتى من منبع واحد فعلا

هذا نهر دجلة ، مثلا : من منا يستطيع أن يجزم من أين أتت المياه التى تسيل فيه الآن ؟ من منا يستطيع أن ينكر أن هذه المياه آتية من نواح مختلفة جداً ؟ كلنا نعلم أن قطرات هذه المياه قد تكون متأتية من العيون التى تنبع من تحت التراب أو من بين الصخور ، وقد تكون متولدة من ذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال ، وقد تكون آتية من السيول المتكونة من هطول الأمطار . وكل ذلك قد يكون من جراء ما حدث فى أعالى الزاب ، أو على سفوح حمرين ، أو فى سهول الموصل ، أو على جبال زاخو ، أو فى ديار بكر . . . ومهما كان الأمر ، فإن جميع هذه المياه المختلفة المصدر تسير الآن جنباً إلى جنب فى مجرى واحد ، وتكوّن هذا النهر الذى يجرى أمامنا . إننا نسمى هذه المياه باسم مياه دجلة ، من غير أن نفكر بمنشئها الخاص ، أو أن نتساءل عن طول المدة

التى مضت منذ التحاقها بهذا المجرى الطويل ، وانتسابها إلى هذا النهر العظيم .

إن أحوال الأمم ومنابعها تشبه ذلك شبهاً كبيراً . إن الإنجليزى المثقف لا يعرف ما إذا كان بينه و بين شكسبير أو نيوتن أو ميلتون رابطة أصل ونسب ، ومع ذلك فأنه يعتبر هؤلاء أجداداً له وأسلافاً ، ويفتخر بهم أكثر مما يفتخر بأجداده الحقيقيين

وكذلك الفرنسى المثقف فأنه لا يتساءل عما إذا كان يجرى فى عروقه حقيقة شىء من دم شارلمان أو راسين أو ڤولتير ؛ ومع هذا فهو يعتبر هؤلاء كلهم أجداداً له وأسلافاً ، و يعتز بهم أكثر مما يعتز ببنى أسرته الأقربين .

فيجدر بنا نحن العرب أيضاً أن نحذو حذو هؤلاء : قد لا نعرف ما إذا كان يربطنا شىء من أواصر القرابة والنسب بسعد بن أبى وقاص مثلا ، أو خالد بن الوليد ، أو ابن الهيثم ، أو أبو العلاء المعرى . ولكننا مع ذلك يجب أن ننتسب إلى هؤلاء وإلى أمثالهم ، ونعتبرهم أجدادنا المعنويين ، ونفتخر بهم أكثر مما نعتز ونفتخر بأبناء أسرنا الحقيقيين

إن المهم فى القرابة والنسب ليس رابطة الدم فى حد ذاتها ، بل هو الاعتقاد بها والنشوء عليها . وهذا هو الواقع ، بالنسبة إلى الأفراد والجماعات على حد سواء : إن الاعتقاد بوحدة الأصل والشعور بالقرابة يعمل عملا هاماً فى تكوين الأمم ، سواء أكان ذلك موافقاً للحقيقة أم مخالفاً لها . لأن القرابة بين أفراد الأمم تكون قرابة نفسانية معنوية ، أكثر مما تكون جسمانية ومادية

— ٢ —

لقد قررنا أن القرابة فى الأمم تكون نفسانية ومعنوية أكثر مما تكون جسمانية ومادية

ومن البديهى أنه لا يجوز لنا أن نكتفى بتقرير هذه الحقيقة ، بل يجب علينا أن نسعى لتحليلها أيضاً : يجب علينا أن نبحث فى الوقت نفسه عن كيفية تولد هـذه القرابة المعنوية ، وأن نتحرى الأسباب الموجبة لها ، والعوامل المؤدية اليها .

إن هذه الأبحاث والتحريات توصلنا إلى الحقيقة التالية :

إن أهم العوامل التى تؤدى إلى تكوين القرابة المعنوية التى يشعر بها الأفراد فى الأمم المختلفة ، هى اللغة والتاريخ . فإن الاعتقاد بوحدة الأصل إنما يكون فى الدرجة الأولى من الوحدة فى اللغة والاشتراك فى التاريخ .

فلندرس تأثير كل واحد من هذين العاملين الهامين بشيء من التفصيل :

اللغة : هى أهم الروابط المعنوية التى تربط الفرد البشرى بغيره من الناس . لأنها أولاً ، واسطة التفاهم بين الأفراد ، ثم هى فضلاً عن ذلك ، آلة التفكير ؛ لأن التفكير — حسب تعبير أحد الحكماء — ما هو إلا تكلم باطنى ، والتكلم إنما هو نوع من التفكير الجهرى . وأخيراً إن اللغة هى واسطة لنقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء ، ومن الأجداد إلى الأحفاد ، ومن الأسلاف إلى الأخلاف

هذا ، واللغة التى ينشأ عليها الإنسان ، تكيف تفكيره بكيفيات

خاصة ، كما أنها تؤثر فى عواطفه أيضاً تأثيراً عميقاً ؛ فإن اللغة التى يسمعها المرء منذ صغره ، اللغة التى تخاطبه بها أمه منذ أوائل حياته الواعية ، لغة التنويمات والأغانى التى تهز مشاعره منذ طفولته تؤثر بطبيعة الحال تأثيراً عميقاً فى تكوينه العاطفى . ولذلك نجد أن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة فى التفكير وفى الشعور ، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية ، ونستطيع أن نقول لذلك : إنها تكون أقوى الروابط التى تربط الأفراد بالجماعات

وبما أن اللغات تختلف بين قوم وقوم ، فمن الطبيعى أن نجد مجموع الأفراد الذين يشتركون فى اللغة ، يتقاربون أكثر من غيرهم ، ويتماثلون ويتعاطفون أكثر من سواهم ، ويتميزون عمن عداهم ؛ فيؤلفون بذلك أمة متميزة من الأمم الأخرى

ونستطيع أن نقول لذلك إن الأمم يتميز بعضها من بعض — فى الدرجة الأولى — بلغاتها ؛ وإن حياة الأمم تقوم — قبل كل شىء — على لغاتها

وإذا أضاعت أمة من الأمم لغتها ، وصارت تتكلم بلغة أخرى ، تكون قد فقدت الحياة ، واندمجت فى الأمة التى اقتبست عنها لغتها الجديدة

كثيراً ما يرينا التاريخ ، أن بعض الأمم تستولى على أمة أخرى ، وتخضعها لإرادتها ، وتسير شؤونها كما تشاء . إن هذا الاستيلاء يفقد الأمة المغلوبة استقلالها ، ولكنه لا يمس كيانها ، ما دامت الأمة المذكورة محافظة على لغتها الخاصة بها ، وما دامت متميزة من الأمة المستولية عليها

بهذه اللغة الخاصة . وقد قال أحد المفكرين : « إن الأمة المحكومة التي تحافظ على لغتها ، تشبه السجين الذى يمسك بيده مفتاح سجنه » . إنها تستطيع أن تفلت من سجنها هذا ، فتسترد حريتها واستقلالها فى يوم من الأيام ؛ لأنها تبقى حية بحياة لغتها ، وتظل محافظة على كيانها كأمة ، برغم أنها تكون قد فقدت شخصيتها كدولة . ولكن الأمة المذكورة إذا فقدت — بمرور الزمان — لغتها الخاصة واقتبست وتبنت لغة الدولة المستولية عليها ، تكون قد فقدت الحياة بتاتاً ، واندمجت فى كيان الأمة التى أعطتها لغتها الجديدة ، فلا يبقى ثمة أمل ما لعودتها إلى الحرية والاستقلال

يتبين من ذلك كله : أن اللغة هى روح الأمة وحياتها ؛ إنها بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى ، وهى من أهم مقوماتها ومشخصاتها

وأما التاريخ فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها . فإن كل أمة من الأمم ، إنما تشعر بذاتها وتكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص

عند ما أقول التاريخ ، لا أقصد بذلك التاريخ المدوّن فى الكتب ، — التاريخ المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات — بل أقصد بذلك التاريخ الحى فى النفوس ، الشائع فى الأذهان ، المستولى على التقاليد

إن وحدة هذا التاريخ تولد تقارباً فى العواطف والنزعات ، إنها تؤدى إلى تماثل فى ذكريات المفاخر السالفة وفى ذكريات المصائب الماضية ، و إلى تشابه فى أمانى النهوض وآمال المستقبل

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الذكريات التاريخية تقرب النفوس ، وتكون بينها نوعاً من القرابة المعنوية ، وتكون هذه القرابة المعنوية

أشد تأثيراً من القرابة المادية بدرجات

والأمة المحكومة التى تنسى تاريخها ، تكون قد فقدت شعورها ووعيها ، وهذا الشعور والوعى ، لا يعود إليها إلا عند ما تتذكر ذلك التاريخ وتعود إليه

ولهذا السبب ، نجد أن الأمم المستولية والحاكمة ، تعمد قبل كل شىء إلى مكافحة تاريخ الأمة المحكومة ، وتبذل ما استطاعت من الجهود لأجل إقصاء ذلك التاريخ من الأذهان . إنها تسعى من جهة — إلى تشويه هذا التاريخ لأجل تجريده من قوة الجذب والتأثير ، كما تعمل من جهة أخرى — على إلهاء الأذهان بوقائع تاريخها هى وبهر الأنظار بشعشعة التاريخ المذكور

وأما اليقظات القومية ، بعد عهود الحكم الأجنبى ، فتبدأ عادة — بعكس ذلك — بتذكر التاريخ القومى وبالاهتمام به اهتماماً خاصاً

يتبين من كل ما تقدم . أن اللغة والتاريخ ، هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير فى تكوين القوميات . والأمة التى تنسي تاريخها تكون قد فقدت شعورها ، وأصبحت فى حالة السبات ، وإن لم تفقد الحياة ، وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومي وبالاهتمام به اهتماماً فعلياً ، ولكنها إذا ما فقدت لغتها ، تكون عندئذ قد فقدت الحياة ودخلت فى عداد الأموات ، فلا يبقى سبيل إلى عودتها إلى الحياة ، فضلاً عن استعادتها الوعى والشعور

ولـكن العوامل التى تؤثر فى تكوين الأمم وتمييز بعضها من بعض لا تنحصر فى اللغة والتاريخ ، بل إن هناك عوامل أخرى تؤثر فى ذلك تأثيراً واضحاً . فتقوى تارة تأثير العاملين الأساسيين المذكورين آنفاً ، وتضعف ذلك التأثير طوراً

إن أهم هذه العوامل ، هو الدين

لأن الدين يولد نوعاً من « الوحدة » فى شعور الأفراد الذين ينتمون إليه ، ويثير فى نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التى تؤثر فى أعمالهم تأثيراً شديداً ، فالدين يعتبر من هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التى تربط الأفراد ببعضهم البعض ، وتؤثر بذلك فى سير السياسة والتاريخ

غير أن تأثير الدين فى تسيير السياسة والتاريخ وتـكوين القومية والوطنية — على هذا المنوال — لا يجرى على وتيرة واحدة فى كل الأحيان . بل إن هذا التأثير يختلف باختلاف الأديان من جهة ، وباختلاف العصور والأدوار من جهة أخرى

وتستطيع أن تقول لذلك : إن علاقة الأديان بالقوميـات من المسائل المعضلة التى تحتاج إلى بحث عميق وتحليل دقيق

يجب علينا أن نلاحظ في هذا الصدد ـ قبل كل شيء ـ أن الأديان تنقسم من الوجهة الاجتماعية إلى صنفين أساسيين : الأديان القومية ، والأديان العالمية

ذلك لأن بعض الأديان تنحصر بقوم أو شعب أو مدينة . ومعتنقو هذه الأديان يعتقدون بإله خاص بهم دون غيرهم ، ويزعمون بأنه يحميهم دون سواهم . ولذلك فأنهم لا يسعون إلى نشر دينهم ومعتقدهم بين الأنام ؛ بل بعكس ذلك يسدون أبواب هـذا الدين فى وجوه سائر الأقوام . ولا حاجة إلى القول بأن أمثال هذه الديانات الخاصة ، تـكون بمثابة أديان قومية بكل معنى الـكلمة . ومن الطبيعى أن الرابطة التى تتولد منها تنضم إلى تأثير اللغة والتاريخ ، وتقوى الروابط التى تربط الأفراد بعضهم ببعض . ولذلك كله نجد أن تلك الحياة الدينية لدى تلك الأقوام ، لا تنفصم عن الحياة السياسية أبداً ؛ فتزيد أفراد القوم ترابطاً على ترابطهم وتماسكاً على تماسكهم . فنستطيع أن نقول : إن الروابط الدينية تـكون فى هؤلاء الأقوام من عناصر القومية الأساسية

من المعلوم أن الديانة الإسرائيلية ، وكثيراً من الأديان الوثنية القديمة كانت من هذا القبيل

ولـكن الأحوال تختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً ، فى الأديان العالمية ، لأن هذه الأديان لا تختص بشعب من الشعوب أو أمة من الأمم ؛ بل بعكس ذلك تفتح أبوابها لجميع الأقوام ، وتدعو إلى اعتناقها جميع الأنام ، على اختلاف لغاتهم وأجناسهم . إن هذه الأديان إنما تسعى إلى الانتشار بين أكبر عدد ممكن من الأفراد والجماعات ؛ وتميل إلى إيجاد رابطة أعم من روابط اللغة والتاريخ ، وتخلق بذلك نوعاً من الجو الأممى الذى يحيط بكثير من الأقطار ويغمر كثيراً من الأقوام

من البديهى أن أصحاب هذا الصنف من الديانات كثيراً ما يميلون إلى معارضة القوميات

ومن المعلوم أن الديانة المسيحية والديانة الإسلامية من جملة هذه الأديان العالمية التى لعبت دوراً هاماً فى سير التاريخ

***

قلنا إن هذه الديانات تسعى إلى خلق نوع من الجو الأممى الذى يجمع مختلف الأقوام ، ويغمرهم غمراً . ولكنه ، يجب علينا أن نتساءل : هل نجحت الأديان العالمية التى ذكرناها ، فيما كانت تنزع إليه فى هذا الصدد ؟ وهل أوجدت بهذه الصورة رابطة أقوى وأعم من الروابط القومية ؟

إن التاريخ يشهد على عكس ذلك تماماً : إن الأديان العالمية لم تنجح فى ذلك ، إلا داخل نطاق محدود ، وإلا مدة قصيرة جداً . إنها لم تستطع أن تمزج الأقوام مزجاً حقيقياً ، وأن تزيل الفوارق التى تميز بعض أولئك الأقوام من بعض تماماً ، إلا بقدر ما نجحت فى نشر لغة من اللغات ، وبقدر ما أوجدت من التبدل فى حدود القوميات

فالديانة المسيحية مثلاً ، حاولت أن تشمل العالم بأجمعه ؛ ومع هذا ، إنها لم تحل دون افتراق المسيحيين أنفسهم إلى أمم ودول عديدة ، ودون تخاصم وتحارب هؤلاء الأمم والدول فيما بينها

وكذلك الأمر فى الإسلام : من المعلوم أن الدعوة الإسلامية أيضاً سعت إلى جمع الأنام تحت راية القرآن ، ولكن التاريخ يشهد على أن المسلمين أنفسهم لم يبقوا متحدين تماماً ، إلا لمدة محدودة جداً ؛ وأن

انتشار الإسلام ، لم يحل دون تفرق المسلمين إلى أمم ودول ، ودون حدوث منازعات ومخاصمات بين الدول الإسلامية نفسها

ذلك لأن المبادئ النظرية شيء ، والحقائق الراهنة شيء آخر ؛ وما يرد فى التعاليم الدينية شيء ، وما يتحقق فى الحياة الاجتماعية شيء آخر . والأديان العالمية لم تستطع أن توحد القوميات ، حتى فى الأدوار التى كانت قد وصلت سلطتها وسيطرتها إلى أقصى الدرجات

ولا غرابة فى ذلك أبداً : لأن الأديان نفسها كثيراً ما تتفرق إلى مذاهب متنوعة . والقوميات المختلفة كثيراً ما تجد فى الاختلافات المذهبية سبيلاً للمحافظة على كيانها ، على الرغم من الجو الأممى الذى تخلقه الأديان العالمية ؛ وذلك عن طريق اعتناق مذهب جديد ، وحمل راية مذهب خاص

زد على ذلك ، أن الدين ولو كان أمراً باطنياً فى حد ذاته ، فإنه لا يخلو من المظاهر الخارجية ، ولا يستغنى عن الوسائط المادية ؛ فيخضع لذلك لقوانين الحياة الاجتماعية ، كما يتضح من التفاصيل التالية

أولاً ، إن التعاليم الدينية تستمد قوتها من كتاب خاص ؛ وهذا الكتاب إنما يكون بلغة من اللغات

ثانياً ، هذه التعاليم تفرض بعض الطقوس والصلوات ؛ وهذه أيضاً إنما تكون بلغة من اللغات

ثالثاً ، إن الأديان تتطلب تشييد بعض المعابد والمبانى لإقامة شعائر الدين . وهذه المعابد لا بد من أن يتولى شؤونها بعض الرجال ؛ وهؤلاء الرجال إنما يتكلمون بلغة من اللغات ، وينتسبون إلى أمة من الأمم .

يظهر من ذلك كله أن للدين علاقة قوية باللغة : فإن كل دين من الأديان يقوم على لغة ، ويعمل بطبيعته على نشر تلك اللغة . إن اللاتينية انتشرت بواسطة الديانة المسيحية أكثر مما انتشرت بواسطة الفتوحات الرومانية واللغة العربية ، انتشرت بواسطة الدين الإسلامى ، أكثر مما انتشرت بحكم السياسة والإدارة

ومما يظهر علاقة الدين باللغة بوضوح أعظم ، أن اللغة عند ما تأخذ فى التلاشى وتسير نحو الاندراس ، ـ تاركة محلها إلى لغة عامية متفرعة منها ، أو إلى لغة أجنبية متغلبة عليها ـ تجد لنفسها ملجأً أخيراً فى المعابد وفى الطقوس الدينية والصلوات . فإن اللغة اللاتينية مثلاً ، لا تزال تردد وترتل فى الكنائس الكاثوليكية خلال الطقوس الدينية ، مع أنها قد خرجت عن نطاق تخاطب الناس ، ودخلت فى عداد اللغات الميتة منذ عدة قرون ، وكذلك الأمر فى اللغة السريانية

ونستطيع أن نقول لذلك : إن الدين إذا اتحد مع لغة من اللغات قوّى جذور تلك اللغة وحافظ على كيانها ، أكثر من جميع العوامل الاجتماعية الأخرى

ومما يلاحظ فى سير الوقائع التاريخية أن الديانة عند ما تتفرع إلى مذاهب عديدة ، قد ترتبط مقدرات بعض هذه المذاهب ببعض اللغات بوجه خاص . وتنتشر اللغة المذكورة مع انتشار المذهب الذى تبناها ، وتتوسع سيطرة الأمة التى كانت الصاحبة الأصيلة للغة المذكورة بفضل هذا الانتشار . فإن الإمبراطورية الرومانية — مثلا — عندما انشطرت إلى غربية وشرقية ، تمذهب كل شطر منها بمذهب مسيحى خاص

وارتبط بلغة خاصة : إن الإمبراطورية الغربية صارت حامية للكاثوليكية ، واتخذت اللاتينية لغة لسياستها ولديانتها ؛ بينما الإمبراطورية الشرقية تبنت المذهب الأورثوذوكسى ، واتخذت اليونانية لغة لسياستها ولديانتها . فتقوى نفوذ اللاتينية بفضل الكاثوليكية ، كما أن نفوذ اليونانية انتشر وتقوى بفضل الأورثوذوكسية

وقد حدث ما يشبه ذلك عند ظهور المذهب البروتستانتى أيضاً : فإن الإصلاح الدينى الذى بشر به ودعا إليه « لوثر » الشهير ، لم يكتف بإحداث انقلاب مذهبى فحسب ، بل أوجد — بجانب هذا الانقلاب المذهبى — انقلاباً سياسياً واجتماعياً خطيراً . لأن الكاثوليكية كانت أبقت الإنجيل باللغة اللاتينية وحدها ، وجعلت اللاتينية لغة الصلوات كلها . ولكن لوثر حينما ثار على الكاثوليكية — وعلى البابوية التى تمثلها — قائلا بلزوم ترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية ليتمكن الناس من قراءته وفهمه مباشرة ، قد أحدث انقلاباً قومياً فى ظل الانقلاب الدينى الذى جهر به ودعا إليه . لأنه وضع بذلك حداً لسيطرة اللغة اللاتينية — التى كانت قائمة فى أوربا الغربية على معنوية الإنجيل وسلطته — كما أنه قضى قضاء مبرماً على نفوذ الأمم اللاتينية ، ذلك النفوذ الذى كان يستمد قوته من لغة الصلوات الدينية ، وطبيعة التشكيلات البابوية . وفسح بكل ذلك مجالا واسعاً لجعل المذاهب والكنائس قومية بكل معنى الكلمة .

ومما يبرهن على ذلك برهنة قطعية ، ما حدث فعلا بعد الحروب المذهبية التى استمرت عقوداً طويلة من السنين : فإن الأمم التى كانت تتكلم

باللغات اللاتينية ، حافظت على كثلكتها ، وأعرضت عن المذهب البروتستانتى الجديد . فى حين أن الأمم الجرمانية والإنكلوساكسونية أقبلت — بعكس ذلك — على المذهب الجديد إقبالا عظيما ، ولم يشذ عن هذا التيار من الطرفين إلا جماعات قليلة جداً

إن مفكرى الألمان سعوا لإظهار هذا العامل القومى الذى لعب دوراً هاماً فى سير الإصلاح الدينى ، حتى إن المفكر الشهير «فيختته» قال فى إحدى خطبه الحماسية عن لسان رجال الإصلاح الدينى ، ما مؤداه : « إننا لم نكن ندرك عندئذ الدافع الحقيقى الذى كان يدفعنا فى كفاحنا . ولكن الآن صرنا نفهم بكل وضوح : «إن الثورة الدينية التى قمنا بها ، إنما كانت صفحة من صفحات مقاومتنا لسيطرة الإمبراطورية الرومانية ، ومحاولة جديدة للتخلص من تلك السيطرة ، والاستقلال عنها . . . »

وعلى كل حال ، مما لا يمكن أن يختلف فيه اثنان ، إن الكنائس البروتستانية فى جميع البلاد الأوربية أخذت شكلا قومياً تماماً

هذا ، وقد حدث حادث مماثل لذلك فى وقت أقرب من زماننا هذا ، وفى بلاد أقرب إلى بلادنا هذه ؛ أعنى بذلك ما حدث فى بلاد البالقان من النزاع الكنائسى فى أواسط القرن التاسع عشر : من المعلوم أن المذهب الأورثوذركسى كان اعتمد على النص اليونانى من الإنجيل ؛ وذلك أدى إلى اصطباغ الكنيسة الأورثوذوكسية بصبغة يونانية . وهذه الصبغة تقوت بوجه خاص في بلاد البلقان ؛ وصارت الكنيسة اليونانية تسيطر على الأمم المسيحية فى ماكدونيا وبلغاريا سيطرة معنوية شديدة ، من الوجهة الدينية ، على الرغم من أنها كانت هى بدورها تحت سيطرة

الدولة العثمانية من الوجهة السياسية . وحينما أخذ البلغار ينهضون من رقادهم ويتطلعون إلى الاستقلال ، وجدوا أنفسهم تحت سيطرتين مختلفتين : سيطرة الدولة العثمانية السياسية ، وسيطرة الكنيسة اليونانية الدينية . ولاحظوا : أن سيطرة الدولة العثمانية ما كانت تمس كيانهم القومى ، لأنها ما كانت تتعرض إلى لغتهم الخاصة ، فى حين أن سيطرة الكنيسة اليونانية كانت تمس كيانهم القومى مباشرة ، لأنها كانت تنشر اللغة اليونانية بينهم ، كما أنها كانت ترسل القسس اليونانيين إلى أحيائهم وتدخلهم إلى صميم عائلاتهم . وذلك كان قد أدى إلى « يَوْنَنَة » قسم غير قليل منهم . ولهذا السبب بدأت النهضة القومية البلغارية ، أولا بقيام ضد الكنيسة اليونانية ، وضد رجالها اليونانيين ؛ وبمطالبة ملحة لتحويل لغة الصلوات من اليونانية إلى البلغارية ، ولتولية شؤون الكنائس والمراتب الدينية رجالا من البلغار أنفسهم ، عوضاً عن اليونانيين الذين كانوا قد احتكروا تلك المراتب احتكاراً

قام البلغار يطالبون بذلك مطالبة عنيفة ؛ وحينما رأوا إصرار البطريركية اليونانية فى إبقاء ما كان على ما كان ، لم يترددوا فى الانفصال عنها ، وأوجدوا كنيسة قومية قائمة بنفسها عرفت باسم « الأكسارخية » وذلك بالرغم من « الحرم » الذى أعلنته البطريركية المذكورة ضد الكنيسة الجديدة

إن البلغار وضعوا بذلك حداً للخلافات التى كانت تظهر فى بلادهم بين السياسة القومية وبين السياسة الدينية ؛ وضمنوا استقلالهم القومى

عن الكنيسة اليونانية ، قبل أن يتموا استقلالهم السياسى عن الدولة العثمانية

* * *

إنى أعتقد أن هذه الأمثلة كافية لإظهار قوة النزعات القومية تجاه الروابط الدينية ، وللبرهنة على أن الأديان العالمية نفسها لا تستطيع أن تقضى على النزعات القومية

هذا ، ولا بد لى من أن أشير إلى ظاهرة اجتماعية أخرى ، لإتمام بحثى فى علاقة الديانة بالقومية ؛ من المعلوم أن الأمم الحاكمة تسعى لنشر لغتها بين أفراد الأمم المحكومة لها ؛ ومن البديهى أن انتشار لغة الحاكمين بين المحكومين قد يؤدى إلى تمثيل هؤلاء تمثيلاً تاما

إن الدين يلعب دوراً هاماً خلال النضال الذى يحدث — على هذا المنوال — بين لغة الحاكمين و بين لغة المحكومين أيضاً ؛ فإذا كان الحاكم والمحكوم من دين واحد ، يكون التمثيل أسهل ، ويتم بسرعة أعظم ، متى ما تهيأت له سائر الدوافع والأسباب . أما إذا اختلف الحاكم من المحكوم فى الدين — زيادة على اختلافه فى اللغة — فيكون التمثيل أصعب من ذلك بكثير

إن الفرنسيين الذين كانوا قد اعتنقوا المذهب البروتستانتى ثم هاجروا إلى ألمانيا فى عهود الاضطهادات الدينية ، اندمجوا بالألمان اندماجاً تاماً ، ولم يحافظوا على شىء من مميزاتهم القومية أبداً

والأتراك والتتر الأسيويين الذين عاشوا تحت حكم القيصرية الروسية حافظوا على لغتهم وقوميتهم بفضل اختلاف ديانتهم من ديانة الحاكمين عليهم . غير أن من كان قد تنصر منهم لم يلبث طويلاً حتى اندمج

بالروس اندماجاً أدى إلي « تروُّس » تماماً

* * *

يتبين من كل ما تقدم أن الروابط الدينية لا تخلو من التأثير في الروابط القومية ، وتأثيرها هـذا قد ينضم إلى تأثير اللغة والتاريخ ، فيقوى الروابط القومية ؛ وقد يخالف التأثير المذكور فيضعف تلك الروابط

ومهما كان الأمر ، فإن الرابطة الدينية وحدها لا تكفى لتكوين القومية ؛ كما أن تأثيرها فى تسيير السياسة ، لا يبقى متغلباً على تأثير اللغة والتاريخ

إن هذا التأثير يشتد أو يتراخى ، يتقوى أو يتلاشى حسب تطور علاقة الدين باللغة ويبقى أمراً ثانوياً فى تكوين القوميات بالنسبة إلى تأثير اللغة والتاريخ

— ٤ —

إننا نستطيع أن نلخص أبحاثنا السابقة بما يلى :

إن العوامل الأساسية فى تكوين القومية هى اللغة والتاريخ

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك ما يأتى :

لا يتغلب عامل من العوامل الاجتماعية على تأثير اللغة والتاريخ فى هذا المضمار ، سوى عامل الاتصال الجغرافى ، لأن فقدان الاتصال الجغرافى قد يؤدى إلى بقاء أجزاء الأمة الواحدة منفصل بعضها عن بعض ، رغم اتحادها فى اللغة والتاريخ . زد على ذلك ، أنه قد يؤدى — بمرور الزمن — إلى تباعد وتباين فى اللغة والتاريخ أيضاً

إن هذه النتيجة التى تظهر من تتبع الحوادث الاجتماعية واستعراض الوقائع التاريخية ، لم ترق لرجال الدول التى اعتادت أن تحكم بعض الشعوب بالرغم من اختلاف لغاتها وتباين تواريخها . ولذلك أخذ مفكرو تلك الدول يبحثون عن نظرية تبرز بقاء الوضع القائم فى بلادهم . وتوصلوا إلى نظرية جديدة عرفت باسم « مشيئة التعاشر ورغبة الاتحاد »

قالوا : إن أهم العوامل التى تلعب دوراً حاسما فى تكوين القومية ، هو مشيئة الجماعات فى البقاء متحدين ، وفى تكوين أمة متحدة ذات شخصية واستقلال

إنهم عللوا نظريتهم هذه بالملاحظات التالية : من الأمور البديهية أن الروابط القومية هى روابط معنوية ؛ ومن الأمور المسلم بها أن أهم ما فى مقوِّمات شخصية الإنسان هو الإرادة والمشيئة . وتستطيع أن تقول لذلك . إن أهم ما فى مقومات شخصية الجماعات أيضاً هو الإرادة والمشيئة : إرادة القوم فى الحياة المعشرية ، رغبتهم فى الاتحاد ، مشيئتهم فى تكوين أمة واحدة ودولة واحدة ، هى التى تكوِّن روح القومية ومحورها الأساسى . والأمة ، إنما هى مجموع الأفراد الذين « يريدون » أن يعيشوا عيشة معشرية ، متحدين متضامنين ، مؤلفين دولة مستقلة ...

ولكن هذه النظرية التى تبدو خلابة فى الوهلة الأولى ، تنهار بسرعة ، حينما يتعمق المرء فى درس القضية بإمعان : إن « مشيئة الجماعة » تعبير مجرد تماماً عن أمر غامض جداً . ذلك لأن هذه « المشيئة » لا تظهر إلا بالتصويت ؛ ومن المعلوم أن التصويت يتأثر كثيراً بالاعتبارات

والدعايات وتتحول لذلك بسرعة . وذلك يخرج « الأمة » من عداد « الجماعات الطبيعية » ، ويجعلها شبيهة بالأحزاب المصطنعة

إن أصحاب نظرية « المشيئة » اضطروا لذلك إلى تعديل تعريفهم وإتمامه بقولهم « المشيئة التى تظهر بصورة فعلية » ، ولكن التاريخ يعطينا أمثلة عديدة تكفى لتفنيد النظرية المذكورة بهذا الشكل المعدل أيضاً : مثلاً إن الولايات الجنوبية فى أميركا كانت أرادت الانفصال عن ولايات الشمال ، وكانت أظهرت إرادتها هذه بصورة فعلية خلال الحروب التى خاضت غمارها ضد الجيوش الشمالية ، ومع هذا . فإنها لم تؤلف أمة خاصة مستقلة عن الولايات المتحدة الأمريكية

فى الواقع إن أصحاب النظرية المذكورة حاولوا أن يدفعوا أمثال هذه الانتقادات ، بإضافة قيد جديد على تعريفهم الأساسى ، فقالوا « المشيئة التى تظهر بصورة فعلية وتستمر مدة طويلة » ولكن من البديهى إن تعبير « مدة طويلة » تعبير غامض . لا يصلح أن يكون أساساً لنظرية علمية

وزيادة على ذلك ؛ فإن الرغبة والمشيئة ، من الأمور ـ النفسانية التى لا تخلوا من دواع وأسباب ، والنهج العلمى يتطلب دوماً استكشاف هذه الدواعى واستطلاع تلك الأسباب . فإذا سلمنا « أن الأمة هى جماعة من الناس الذين يريدون أن يعيشوا متحدين وأن يكونوا دولة مستقلة » وجب علينا أن نتساءل فى الوقت نفسه :

ما هى الأسباب والعوامل التي تدفع بعض الجماعات إلى مثل هذه الرغبة ، وتولد فيهم مثل هذه الإرادة ؟

لماذا يرغب الأفراد أن يعيشوا متحدين كأمة متميزة ، ولماذا يريدون أن يؤلفوا دولة مستقلة ؟

ما هي العوامل التي تولد في نفوس القوم الرغبة في الاتحاد أو الانفصال والتي تجعلهم يريدون أن يعيشوا متحدين أو مفترقين ؟

ولا حاجة إلى القول : إن هذه الأسئلة ، تعيدنا إلى النقطة التي كنا بدأنا منها درسنا وبحثنا في عناصر القومية وتوصلنا في آخر الأمر إلى النتيجة التي كنا حصلنا عليها قبلاً :

إن أهم العوامل التي تولد في النفوس رغبة الاتحاد ، فتؤدي إلى تكوين القومية وتأليف الأمة . إنما هي : وحدة اللغة والتاريخ

ذيل

— ١ —

بمناسبة تعبير وحدة التاريخ الذي استعملته مراراً - خلال بحثي هذا - أود أن أشير إلى أمر ذي بال :

ماذا يجب أن نفهم من تعبير « وحدة التاريخ » ؟

إن الإجابة على هـذا السؤال إجابة دقيقة من الأمور الصعبة جداً ، لأن « وحدة التاريخ » بمعناها المطلق التام ، مما لا يتحقق أبداً في حياة أمة من الأمم ، ولا دولة من الدول . ففي كل دولة توجد بعض الأقطار التي لم يتحد تاريخها مع تاريخ بقية أقطارها إلا منذ مدة قصيرة ؛ توجد بعض الأقطار التي يختلف تاريخها عن تاريخ الأقطار الباقية قليلاً أو كثيراً ، وذلك ليس في الدول والأمم التي اتحدت حديثاً فحسب ، بل في

الدول والأمم التى أتمت وحدتها القومية منذ عدة قرون أيضاً ، وإذا أنعمنا النظر فى تاريخ فرنسا مثلاً ـ وهى التى سبقت سائر البلاد الأوربية فى تكوين وحدة قومية ـ وجدنا فيها عدة مقاطعات لم تلتحق بها إلا منذ بضعة قرون ، علمنا أن قسماً من مقاطعاتها كانت قد حاربت مقاطعاتها الأخرى مدة طويلة ، استمرت عدة قرون

فعند ما نقول « وحدة التاريخ » يجب ألا نفهم من ذلك « الوحدة التامة فى جميع أدوار التاريخ » بل يجب أن نفهم من ذلك ، الوحدة النسبية والغالبة التى تتجلى فى أهم صفحات التاريخ : أهم صفحات التاريخ التى أوجدت ثقافة الأمة الأساسية ، وأعطتها لغتها الحالية ، وطبعتها بطابعها الأصلى الخاص ... وإلا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة ، كانت « موحدة » على طول تاريخها توحيداً تاماً

فقد قال أحد المفكرين : « على كل أمة أن تنسى قسماً من تاريخها »

أنا لا أشك فى أن هذا القول ينطوى على حظ كبير من الحقيقة : فأن الوحدة الحقيقية فى أمة من الأمم ، لا يمكن أن تضمن إلا بنسيان قسم من الوقائع التى حدثت لها خلال تاريخها الطويل

هذا ، وأرى أن أصرح بأننى عند ما أقول « نسيان قسم من وقائع التاريخ » لا أقصد بذلك حذف أخبار تلك الوقائع من الكتب ؛ بل أقصد من ذلك إهمال تلك الوقائع وإبعادها عن منطقة « الفكر الفعالة » وإخراجها من عداد « الفكر القوانية » وتغليب التاريخ المشترك عليها

فيجب علينا ألا ننسى أبداً أنه ما من أمة ولا دولة ، لا يكون لبعض أقسامها تاريخ خاص ، يختلف عن تاريخ أقسامها الأخرى ، ولو فى بعض الأدوار من تاريخها

ويجب أن نعلم العلم اليقين ، أن التاريخ يعمل عمله الفعال فى تكوين الأمم ، على الرغم من أمثال هذه الاختلافات العارضة الطفيفة

— ٢ —

وبمناسبة قصة « تأثير الدين فى تكوين القوميات » أود أن ألفت الأنظار إلى أمر جوهرى آخر :

ينظر بعض الناس إلى علاقة المسلمين بالمسيحيين فى العالم العربى الآن بمنظار متوارث من عهود الحرب الصليبية ، أو مستعار من عهد الإدارة العثمانية ، وإنى أعتقد أن فى كلتا النظرتين خطأ فاحشاً جداً

إن الحروب الصليبية كانت قد حدثت فى عهد كان فيه الوعى القومى مفقوداً فى كل البلاد ، وكان فيه الدين مسيطراً على كل شىء فى جميع أنحاء العالم . من الواضح الجلى أن الحياة الاجتماعية والسياسية فى هذا العصر تختلف عن ذلك اختلافاً كلياً فى العالم الإسلامى وفى العالم المسيحى على حد سواء

كما أن علاقة المسلم بالمسيحى فى العالم العربى الآن تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه فى العهد العثمانى ، لأن الفرق بين المسلم والمسيحى فى قلب الدولة العثمانية لم يكن فرقاً فى الدين فحسب ، بل كان فرقاً فى اللغة والتاريخ والقومية أيضاً ، فإن كلمة « مسلم » فى الدولة المذكورة

كانت تعنى ـ فى الدرجة الأولى ـ التركى ، وأما كلمة « مسيحى » فـكانت تعنى فى الدرجة الأولى ـ الأرمنى والرومى والبلغارى ... ومن المعلوم أن هؤلاء كانوا يختلفون عن الأتراك اختلافاً كلياً ، من حيث اللغة والعنصرية والتاريخ أيضاً ؛ إذ كان لـكل واحد منهم لغة خاصة يتمسك بها ، وتاريخ خاص يدرسه ويتوق إلى إحيائه ، وملوك سابقون وفتوحات ماضية يعززون ويمجدون ذكراهم وذكراها على الدوام

ومن البديهى أن ما حدث فى العهد العثمانى فى ذلك الجو المشبع بأنواع الخلافات لا يمكن أن يحدث فى العالم العربى الآن . تلك الخلافات التى كانت تتحد وتمتزج خلالها النزعات الدينية مع النزعات القومية فتزيدها اضطراما ، لا يمكن أن تحدث فى العالم العالم العربى ـ حيث يتكلم المسلم والمسيحى بلغة واحدة ، ويغنى ويرتل بلغة واحدة ، ويعزز ويمجد تاريخا طويلا واحداً ، ويشترك فى تشييد صرح أدب جديد واحد وثقافة راقية عصرية واحدة

ولعل فى تاريخ الثورة العربية ، أبرز دليل على ذلك وأقوى برهان هذه حقيقة جوهرية ، يجب أن نضعها نصب أعيننا على الدوام

الإيمـــان القومي

[من محاضرة ألقيت بنادي المثنى ببغداد]

إن الإيمان من أهم القوى المؤثرة فى حياة الإنسان .

عندما أقول ذلك ، لا أقصد من كلمة « الإيمان » معناها الدينى الخاص ، بل أقصد معناها اللغوى العام : أقصد « الإيمان » بأى شىء كان ...

إيمان المريض بإمكان الشفاء وفائدة الدواء . . . إيمان المربى بقوة التربية وتأثير المدرسة ... إيمان القائد بقدرة الجيش وبالنصر النهائى . . . إيمان السياسى بإصابة الخطط الموضوعة ، وبإمكان النجاح فى الكفاح ... إيمان الوطنى بمجد الأمة وكفاءتها وبقدرة الوطن ومستقبله . . . كل ذلك من أنواع الإيمان ؛ وكل ذلك من العوامل التى تؤثر تأثيراً شديداً فى أعمال الإنسان

إن للايمان الذى أشرت إليه عدة درجات : هناك الإيمان القوى العميق الذى لا يتزلزل بتأثير عواصف الحياة ، ويقاوم جميع أنواع الملمات. وهناك الإيمان السطحى الضعيف الذى يترجرج تحت تأثير الرياح ويخور ويتلاشى أمام الصدمات ... وهناك — بين هذا وذاك — درجات عديدة من الإيمان ، تتفاوت فى القوة والضعف تفاوتاً كبيراً

إن الإيمان القوى يؤلف قوة مهمة فى جميع فروع الحياة

ذلك لأن غايات الإنسان فى الحياة قلما تتحقق فى حملة واحدة .

بل إنها كثيراً ما تتطلب سلسلة أعمال يجب أن تتوالى باستمرار مدة طويلة ، وفى كثير من الأحيان مدى الحياة . فإذا أقدم الإنسان على عمل من الأعمال ـ مشروع من المشاريع ـ لا يستطيع أن يستجمع ويصرف كل ما لديه من قدرة وطاقة فى سبيل إنجازه ، ما لم يكن مؤمناً بفائدته من جهة ، وبإمكان إنجازه من جهة أخرى

فانه لا بد أن يلاقى كل شخص — خلال سلسلة أعماله هذه — الشيء الكثير من الموانع التى تقطع عليه السبل ؛ ولا بد له من أن يجابه ضروباً من المشاكل التى تمتحن عزائمه . فإذا لم يحمل فى نفسه إيماناً قوياً بإمكان اقتحام تلك الموانع وإزالة تلك المشاكل ، فترت همته وخارت عزيمته ، فأصبح غير قادر على استجماع قواه وحشدها فى سبيل الوصول إلى غايته . ولذلك تراه يتراخى فى العمل لتحقيق تلك الغاية ؛ ثم يعدل عنها ، ويتراجع عن السبل المؤدية لها . وكل ذلك يحدث ، لا لوجود عيب فى المشروع أو نقص فى الوسائل المؤدية لتحقيقه ، بل لعدم وجود « إيمان قوى » يدفع الرجل دفعاً مستمراً لإتمام العمل وإنجاز المشروع .

إننا نشاهد من ذلك أمثلة عديدة ، فى كل يوم ، فى جميع نواحى الحياة :

لقد لاحظ الأطباء وعلماء النفس مثلا : أن إيمان المريض بنجاعة الدواء وبكفاءة الطبيب ، يؤثر فى سير المرض تأثيراً كبيراً ، لأن المريض الذى لا يؤمن بذلك ، لا يعبأ بوصايا الطبيب فلا يعمل ما يجب عمله لمعالجة المرض باهتمام . زد على ذلك أن القنوط من الشفاء ، إذا استولى

على ذهن المريض ومخيلته ، حمله على توهم الخطر وتوقع الموت السريع ، فولد فى فعاليته العصبية وحالته النفسية اختلالا شديداً ، وزاد بذلك على المرض الأصيلى داءاً جديداً

ولهـذا السبب يقرر الأطباء « أن تقوية معنويات المرضى ومحاربة عوامل القنوط فيهم » من أهم وسائل المعالجة ومن أوجب واجباتها

إن هذا الأمر يكتسب خطورة خاصة فى الأمراض العصبية . وكان الطبيب الفرنسى الشهير شاركو Charcot قد لاحظ هذه الحقيقة بكل وضوح ، وعبر عنها بتعبير أخاذ : «الإيمان الشافى» La fai qui guèrit من المعلوم أن بعض الناس يعتقدون بقوة إشفاء بعض المحلات و بعض العيون ، و يؤمنون بفائدة بعض المياه و بعض العقاقير . وقد درس شاركو القضية دراسة علمية ، وقرر أن زيارة تلك المحلات وشرب تلك المياه كثيراً ما يؤدى إلى شفاء بعض الأمراض العصبية ؛ وذلك ليس من جراء تأثير تلك المحلات أو خواص تلك المياه ، بل من جراء إيمان المرضى بها إيماناً راسخاً . ولذلك اعتبر شاركو « الإيمان » من جملة وسائط الإشفاء ، فاستحدث تعبير « الإيمان الشافى » الذى ذكرته آنفاً

وكذلك القواد والباحثون العسكريون ، قد لاحظوا أن إيمان الجيش بالنصر يؤثر تأثيراً هاماً فى سير الحرب ، ويساعد مساعدة كبيرة على الانتصار . و بعكس ذلك ، فإن الشك من النتيجة النهائية ، والقنوط من الانتصـــار ، يؤثر تأثيراً عكسياً يؤدى إلى الانـكسار . فالجيش الذى يفقد إيمانه بالنصر ، يبقى معرضاً إلى الانهزام والاستسلام من جراء انـكسارات جزئية ، ولا يلبث طو يلاً حتى يفقد إمكان النصر

أيضاً . وأما الجيش الذى يؤمن بالنصر ، فأنه يحافظ على قوته على الرغم من الخسائر التى قد يتكبدها . إذ من المعلوم أنه ما من حرب تنتهى بالنصر ، من غير خسارة وانكسار وتراجع ، ولو فى بعض الجهات و بعض المواقع وفى بعض الأدوار ؛ فإن كل جيش قد يفاجأ فى بعض الجهات بهجوم عنيف ، لم يكن مستعداً لمقاومته الاستعداد الكافى ، فيضطر إلى الانسحاب والتراجع من هناك . وقد يمنى بانكسار وهزيمة أيضاً فى بعض الأحيان فى بعض الجهات . ولكن القائد القدير لا ييأس من ذلك ، بل يبقى رابط الجأش ، و يتخذ التدابير اللازمة لتلافى الأمر ، ما دام مؤمناً بالنصر . والجيش الذى يحارب عن اعتقاد و إيمان ، و يثق بمقدرة قواده و يعتمد على تدابيرهم ، لا يتأثر كثيراً من أمثال هذه الوقائع الحربية ، فيواصل الحرب بقوة واندفاع ، وقد يصل إلى النصر فى آخر الأمر بعد خسائر فادحة وهزائم عديدة

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الجيوش لا تتحارب بالوسائل المادية وحدها ، بل تتحارب فى الوقت نفسه بالوسائل المعنوية أيضاً . والأمم تستعد للحروب ، ليس بتشييد الحصون و إعداد آلات الحرب وتعبئة الجيوش فحسب ، بل بإعداد القوى المعنوية وحشدها نحو الهدف المقصود أيضاً ...

و بما أن قواد الجيش يعرفون جيداً أن جميع الأفراد لا يمكن أن يكونوا رابطى الجأش وراسخى الإيمان ، فإنهم يتخذون كل التدابير اللازمة لتقوية معنويات جيشهم و إدامة إيمانهم بالنصر ؛ على حين أنهم ـ من جهة أخرى ـ يتوسلون بوسائل شتى لكسر معنويات أعدائهم ،

ويسعون إلى زعزعة إيمان هؤلاء بالنصر . ولهذا السبب ، كثيراً ما نجدهم يكتمون فى جيوشهم أخبار الخسائر التى قد يتكبدونها فى بعض الجهات ، على حين أنهم يسرعون إلى إذاعة أخبار الانتصارات التى قد يحرزونها فى جهات أخرى . إنهم يسعون – فى الوقت نفسه – لإذاعة أخبار انتصاراتهم بين جيوش الأعداء ، مع بعض المغالاة ؛ حتى إنهم لا يتورعون فى بعض الأحوال ، عن اختلاق الأخبار أيضاً

ونستطيع أن نقول ، إن الجيوش عند ما تتحارب ، لا تفعل ذلك بقذائف المدافع والطيارات فحسب ، بل إنها تتحارب بقذائف الأخبار والإذاعات أيضاً . إنها لا تهاجم الخنادق والحصون فحسب ، بل تهاجم المعنويات أيضاً ؛ إنها لا تكتفى بدك حصون العدو وحدها ، بل تسعى إلى هدم إيمانه بالنصر أيضاً . ولا نغالى إذا قلنا إن « الإيمان بالنصر » إنما هو بمثابة « حصن معنوى » ، لا يقل شأناً عن الحصون المادية فى بعض الأحيان

فالحرب تحتاج على الدوام إلى إيمان ؛ إيمان قوى بالنصر ، فى قلوب الأفراد والقواد ...

* * *

إن الكفاح القومى ، والجهاد فى سبيل النهضة القومية ، لا يختلف كثيراً عن الحروب ، بهذا الاعتبار : فإن النجاح فى هذا الكفاح أيضاً يحتاج إلى إيمان راسخ فى النفوس ، إيمان لا يخور أمام المشاكل ، ولا يتزعزع من الصدمات

ولا أغالى إذا قلت : إن حاجة الكفاح إلى الإيمان ، أشد من حاجة

الحروب إليه . ذلك لأن الحروب الاعتيادية إنما تجرى بالوسائل المادية ، والإيمان إنما يؤثر فى كيفية استحضار تلك الوسائل المادية واستعمالها ؛ ولكن العمل القومى ، إنما هو عمل معنوى فى الدرجة الأولى ، فيحتاج إلى إيمان عميق قبل كل شيء

إذ أن الفوز فى الجهاد القومى ، والنجاح فى نضال النهضة القومية والتغلب على الموانع والعوائق الداخلية والخارجية ؛ كل ذلك ـ مثل الانتصار فى الحروب ـ لا يتم فى حملة واحدة ، وإنما يتطلب الاستمرار فى العمل والنضال ، على الرغم من صفحات الخيبة والفشل ، التى لا بد من أن تحدث وتتوالى ، قبل تحقق الفوز النهائى

ولذلك كله ، أستطيع أن أقول : إن النضال فى سبيل النهضة القومية ، يتطلب بذل الجهود لبث « الإيمان القومى » فى النفوس ، ولتقوية هذا الإيمان وتغذيته بكل الوسائل الممكنة

***

هذا وأرى من واجبى أن أصرح ، بكل أسف ، أن هذا الإيمان لا يزال ضعيفاً فى نفوس الشبان ، إنى كثيراً ما لاحظت آثار هذا الضعف بكل وضوح وكثيراً ما تحريت أسباب هذا القنوط بكل اهتمام

يظهر لى أن معظم الشبان القوميين يأملون تحقيق أمانيهم الوطنية بسرعة ، ويطمحون إلى رؤية نجاح القضية العربية على الفور ؛ وعند ما يلاحظون عدم تحقق الفوز السريع الذى كانوا ينتظرونه والنجاح السريع الذى كانوا يأملونه . يستسلمون إلى اليأس والقنوط

إنى أعتقد أن مرد هذه الأحوال كلها هو ضعف « الإيمان القومى »

فى نفوسنا ، وأما أسباب هذا الضعف وعوامله فهى كثيرة جداً . غير أن أهمها يعود ـ في نظرى ـ إلى سوء نظرنا إلى تاريخ الأمة العربية من جهة ، وعدم توسعنا فى درس تواريخ نهضات الأمم المختلفة من جهة أخرى

ولهذا السبب رأيت أن أتبسط فى شرح هذه العوامل بعض التبسط ، وأن أناقشها بعض المناقشة :

فلننعم النظر أولاً فى قضية ماضى العربية

من المعلوم أن أمجاد الماضى من أهم عوامل الأمل ودوافع الإيمان بالمستقبل . وذلك لأن المرء عند ما يجد فى ماضى أمته كثيراً من الصفحات المجيدة ، يزداد إيماناً بإمكان استعادة ذلك المجد ، ويشتد اندفاعه للعمل فى هذا السبيل ، ولكنه عند ما يرى فى الماضي كثيراً من الصفحات السوداء يصبح أضعف إيماناً بإمكان النهوض وأقل اندفاعاً للعمل فى هذا السبيل

ولا حاجة إلى القول ، إنه ما من أمة خلا تاريخها من أدوار انحطاط وصحائف سوداء ؛ ما من أمة استطاعت أن تبقى ـ طول تاريخها ـ قوية ناهضة على الدوام . فإن تاريخ كل أمة من الأمم يتألف عادة من أدوار ارتقاء وانحطاط ، ويعرض للأنظار تارة صحائف سوداء ، وطوراً صحائف بيضاء ، تارة عهود أمجاد وطوراً عهود نكبات ، وعند ما يستعرض المرء تلك الأدوار وتلك الصحائف ، قد يبقى تحت تأثير المجيدة منها ، فيزداد إيماناً ، وقد يبقى تحت تأثير السوداء منها فيصبح يائساً من مستقبلها

إنى كثيراً ما صادفت بين الشبان من ينظر إلى التاريخ العربى بمثل هذه المناظر السوداء ، ومن يستخرج أحكاماً تثبط العزائم وتؤدى إلى اليأس والقنوط

تاريخنا ؟ ماضينا ؟ هل كان مجيداً حقيقة فى دور من أدواره ؟ ماذا كان لنا غير الحروب والفتوحات التى لم تستمر طويلاً ؟ الخلفاء ؟ أما كانوا يتخاصمون ويتنافسون على الدوام ؛ وينغمسون فى الملذات فى أكثر الأوقات ؟ العلماء ؟ ألم تكن مؤلفاتهم مملوءة بالأغلاط والسخافات ؟ وزد على ذلك ، أما كان معظمهم من الأعجام ؟ وأخيراً هل تعدى عملهم حدود النقل والترجمة والتكرار ؟

وتاريخنا ، هل يمكن أن يقارن بتاريخ اليونان أو بتاريخ الغربيين فى دور من الأدوار ؟ ...

إننى سمعت ـ فى مختلف الأوقات ـ أمثال هذه الأسئلة والأقوال . ورأيت أحياناً من ينتهى من كل ذلك إلى هذا الحكم (البتّات)(١) : Catégorique

« نحن ساميون ليس لنا قابلية الابتكار والافتكار والارتقاء مثل الآريين » .

لا أرانى فى حاجة إلى القول إن أمثال هذه الآراء والأقوال تثبط العزائم بطبيعة الحال . وتؤدى إلى زعزعة الايمان القومى وإضعافه ، فلا تترك مجالا لاندفاع النفوس نحو خدمة النهضة القومية بكل ما لديها من قوة

---

(١) إنى أتعمد استعمال هذه الكلمة بهذه الصيغة للدلالة على هذا المعنى

فلننعم النظر فى هـذه الملاحظات لنرى مبلغ مطابقتها للحقيقة والواقع :

صحيح إن تاريخنا كثيراً ما يبدو — من بين الـكتب التى نتداولها — « تافهاً وهزيلا » ، بالنسبة إلى التواريخ الغربية « الناصعة المجيدة » . ولـكن السبب فى ذلك لم يكن تفاهة تاريخنا نفسه ، بل هو رداءة الـكتب التى تعرض لنا ذلك التاريخ . إن الـكتب التى نقرؤها عادة عن تواريخ الغربيين مكتوبة بنظرة علمية وخطة تربيوية ونزعة قومية ، فى وقت واحد ؛ على حين أن الـكتب التى نقرؤها عن تاريخنا بعيدة وخالية من النظرات العلمية والخطط التربيوية والنزعات القومية فى وقت واحد . إننا لا نزال نـكتب تاريخنا ، كتاريخ للخلفاء والملوك ؛ وإذا ما أدركنا خطأ هذه الطريقة ، وحاولنا العدول عنها ، جعلناه تاريخاً للأمراء والوزراء ، وقسمناه إلى أدوار ، سميناها باسم « الدور التركى والدور الفارسى » حسب جنسية هؤلاء الأمراء والوزراء . وأنا أؤكد لـكم بأنى لو أردت أن أكتب تاريخ إحدى الأمم الأوربية على هذا النمط ، لما استطعت أن أحصل على تاريخ أحسن من تواريخنا أبداً ؛ ولتغيرت معالم ذلك التاريخ تغييراً كلياً .

صحيح أن خلفاؤنا تحاسدوا وتنازعوا وتنابذوا كثيراً ؛ ولـكن الملوك الغربيين الذين عاصروا هؤلاء الخلفاء لم يكونوا أحسن حالا من ذلك أبداً . ادرسوا تواريخهم من أمهات الـكتب المفصلة ، تجدوا فيها أيضا أنواعا من المآسى التى لا تقل عن مآسى خلفائنا أبداً ، إن لم تفقها كثيراً ؛ تجدوا عندهم أيضاً أنواع المآسى التى حدثت بين الأخوة ، حتى بين الآباء

والأبناء ؛ وتتأكدوا عندئذ أن الفرق الهائل الذى يظهر بين تاريخنا وتواريخهم ، إنما ينشأ من اختلاف طريقة التدوين : إننا نهتم بهذا النوع من الوقائع أكثر من غيرها ، ونتوسع فى عرضها وتفصيلها ؛ على حين أنهم يتركون أمثال هذه الوقائع مطمورة فى الكتب المفصلة ، التى لا يقرؤها عادة إلا رجال البحث والاختصاص

إنهم يذكرون علماءهم بالخدمات التى أسدوها إلى ثقافة بلادهم من جهة ، وإلى حضارة العالم من جهة أخرى ، بقطع النظر عن الأخطاء التى شاركوا معاصريهم فيها ، وبقطع النظر عن وجوه الضعف التى اتصفوا بها ، وأما نحن ، فنهتم بخصوصيات حياة علمائنا أكثر مما ندرس مآثرهم الحقيقية وخدماتهم الفعلية

نحن نقول : إن معظم أدبائنا وعلمائنا ، لم يكونوا من أصل عربى بحت ؛ ولكنهم يقولون إن المهم هو البيئة والمربى والثقافة ، لا الدم والأصل والنسل

كتبنا تبدأ تراجم العلماء والأدباء بذكر أصلهم ونسبهم ، وتتوسع فى بحث ذلك توسعاً كبيراً . على حين أن كتبهم لا تهتم بمثل هذه الأبحاث كثيراً

لو أردت أن أحذو حذو كتبنا فى هذا المضمار ، لاستطعت أن أجد فى تواريخ الأمم الغربية عشرات من العظماء الذين كانوا من نسل أجنبى بكل تأكيد ، ومئات من الذين كانوا مجهولى الأصل تماما

ولذلك كله أقول بلا تردد : إن أول الواجبات التى تتحتم علينا — لتقوية الإيمان القومى — هو كتابة تاريخنا على نمط جديد ، بعقلية

غربية ونزعة قومية

* * *

هذا ، ولا بد لى من كلمة أقولها حول قضية « خدمة العرب للعلوم والحضارة » . لقد اعتاد معظم الكتاب أن يصفوا هذه الخدمة بـ « الوساطة » البسيطة ؛ لأنهم ينظرون اليها كأنها عبارة عن نقل العلوم اليونانية و إيصالها إلى الأمم الأوروبية . ولكن هذا النظر لا يوافق الحقيقة والواقع بوجه من الوجوه . فإن أجدادنا لم يكتفوا بالنقل ، بل أضافوا إلى العلوم اليونانية كمية كبيرة من المعلومات المبتكرة الهامة ، ولا سيما فى العلوم الرياضية والطبيعية

ومع هذا ، لو تركنا عمل الابتكار جانبا واكتفينا بملاحظة خدماتهم فى النقل وحده ، لما حق لنا أن نستصغر تلك الخدمات أبداً . لو فرضنا أن عملهم كان قد اقتصر على نقل العلوم اليونانية — دون إضافة شىء عليها — لكان ذلك أيضاً كافيا لوضعهم فى مصاف أكبر الأمم التى قدمت للحضارة العالمية أجل الخدمات

و إنى أود أن ألفت الأنظار - فى هذا المضمار إلى ملاحظة أساسية ، أبداها المؤرخ المفكر (بول لاكومب) فى تأليفه المشهور : « التاريخ كعلم »

يلاحظ بول لاكومب أن الرومان لم يهتموا بعلوم اليونان ، ولم يقدروها حق قدرها ، فلم ينقلوا شيئاً من أمهات الكتب المتعلقة بها . من المعلوم أنهم كانوا قد اتصلوا بالحضارة اليونانية عقب حروب القرطاجنية الثانية ، أي فى أوائل القرن الثانى بعد الميلاد ؛ والحضارة التى أوجدوها

استمرت مزدهرة حتى نهاية القرن الخامس بعد الميلاد . خلال هذه القرون السبعة لم يترجم الرومان أو قليدس ، ولا فكروا فى ترجمة هبيارخوس ولا أقدموا على ترجمة بطلميوس ، وهذه مسألة يجب أن تستوقف الأنظار . قد يقال إن عدم ترجمتهم للكتب المذكورة لا يجوز أن يعتبر دليلاً على عدم تقديرهم لأهميتها ، لأن ذلك قد يكون ناتجاً من عدم حاجتهم إليها ، نظراً لشيوع اللغة اليونانية بين منورى الرومان » . ولكن بول لا كومب ينفى هذا الاحتمال ويفند هذا الرأى قائلاً : إننا نعلم أن الرومان ترجموا قصيدة تافهة كان نظمها « آراتوس » فى وصف منطقة البردج وشرح تأثير النجوم وأعادوا ترجمتها ثلاث مرات . إن ترجمة هذه القصيدة التافهة ثلاث مرات مع عدم ترجمة هبيارخوس و بطلميوس وأوقليديس من الحوادث والمشاهد التى تستلفت الأنظار

بعد هذه الملاحظات ، ينتقل لا كومب إلى عمل العرب ويقول :

« لكن العرب ما كادوا يتصلون بالحضارة اليونانية اتصالاً مباشراً — بعد خروجهم من الجزيرة واستيلائهم على مصر وسورية والعراق — إلا وقد شرعوا فى ترجمة العلوم اليونانية ؛ ولم يمض على ذلك قرنان إلا وقد أتموا ترجمة كل ما كان باقياً من أمهات الكتب اليونانية »

و بعد تقرير هذه الوقائع ، يبدى لا كومب الملاحظات والمحاكمات التالية ...

« هل أضاف العرب شيئاً على علوم اليونان ؟ هذا موضوع يتناقش فيه العلماء المتبحرون ... افرضوا أنهم لم يعملوا شيئاً غير الحفظ والإدامة ، وأن دورهم العلمى انحصر فى النقل والترجمة وحدها ... فإنكم مع هذا تجدون

أنفسكم أمام مسألة تاريخية هامة ، عند ما تقارنون ذلك بالحقيقتين التاليتين :

أولاً : إن الرومان لم يفعلوا ذلك أيضاً قبل العرب

ثانياً : إن الأمم الغربية التى تكونت على أراضى الأمبراطورية الرومانية ، ظلت عشرة قرون ، دون أن تصل إلى النقطة التى كان وصل إليها العرب قبلها »

إن كاتب هذه الملاحظات لم يكن عربياً بل ولا شرقياً ؛ بل كان رجلاً غربياً ، نشأ فى بيئة اعتادت أن تنتقص من فضل العرب على الدوام ، فاعترافه بفضل العرب فى هذا المضمار جدير بالاعتبار

غير أنى أرى أن أضيف إلى ما كتبه لا كومب ملاحظة أخرى ، من الأهمية بمكان :

إن عملية نقل العلوم من « اليونان » التى تمت فى عهد أجدادنا الكرام ، لا يجوز أن تشبه بعمليات النقل والاقتباس التى نقوم بها نحن الآن ، ذلك لأن الحضارة الغربية الحالية حضارة حية ، تبهر الأبصار وتخلب الألباب ، إنها بمثابة مرجل يغلى وموقد يتقد ويملأ العالم ناراً ونوراً . فالاقتباس الآن يكون بمثابة أخذ قبس ضئيل وشعلة صغيرة من نار مستعرة هائلة تقذف الحمم ، مثل البراكين الثائرة ، على حين أن الحضارة اليونانية لم تكن كذلك فى عهد النهضة العربية الكبرى : إنها كانت حينئذ فى دور الانحطاط والتدهور . ونارها ونورها كانا فى حالة الخمود . ولا نكون مغالين إذا قلنا إنها كانت مكفنة فى بعض الكتب المهملة فى زوايا الأديرة ، وإن مدارستها كانت مقصورة

على بعض الرهبان والنساك . ولا نكون مخطئين إذا قلنا : إنها كانت بمثابة جمرات مغطاة بطبقة كثيفة من الرماد ، أوشكت أن تفقد كل ما كان لها من حرارة

إن أجدادنا العظام أخرجوا هذه الجمرات من تحت الرماد ، وأوقدوا بها ناراً مستعرة

***

وأما ما يقال عن دمائنا « السامية » وعن تقصيرنا الفطرى عن الأقوام الآرية ؛ فهو من أبعد الأمور عن الأسس العلمية الصحيحة ، لأن الأبحاث العلمية لا تقر أبداً بوجود جنس آرى وصفات آرية ودم آرى ، ولا بوجود جنس سامى وصفات سامية ودم سامى . بل إنها تقرر بكل تأكيد أن كلمات الآرية والسامية وأمثالها الكثيرة لا تدل على شىء غير العلاقات والمشابهات اللغوية ؛ وأن الأقوام المعروفة باسم الآرية لا تمتاز بخصائص فطرية عامة ، ولا تتفوق على الأقوام المعروفة باسم السامية تفوقاً طبيعياً

إنى أعرف أن ما أقوله فى هذا الصدد يخالف كثيراً مما شاع وذاع بين الناس بوجه عام وبين المفكرين بوجه خاص ، أعرف أنه ينافى كل ما رسخ فى أذهاننا من الآراء والمعتقدات حول قابليات الأمم وخصائصها . ولهذا السبب ، أرى من الضرورى أن أتوسع فى شرح هذه النقطة شرحاً وافياً ، لأظهر مدى بعد هذه الآراء والمزاعم عن الحقائق العلمية الراهنة :

إن فكرة الجنس الآرى تولدت من اكتشاف بعض التشابه بين اللغات الهندية واللغات الأوربية فى أوائل القرن الماضى . فقد قارن

شله جل Schlaegol سنة ١٨٠٨ اللغة السانسكريتية باللغة الألمانية فوجد بعض المشابهات فى أصولها ، فاستدل من هذه «القرابة اللغوية» على وجود «قرابة نسلية» بين الأقوام الهندية و بين الجرمانية ، وأوجد بذلك فكرة « العرق الهندوجرمانى » وقد اكتشف علماء اللغة — بعد ذلك — بعض المشابهات بين السانسكريتية و بين سائر اللغات الأوربية ، واستدلوا منها على وجود قرابة نسلية ، ليس بين الأقوام الهندية و بين الأقوام الجرمانية فحسب ، بل بينها و بين سائر الأقوام الأوربية أيضاً ، وقد وسعوا بذلك حدود نظرية « شله جل » وعوضوا الاسم الذى كان وضعه باسم أشمل ؛ فصاروا يقولون « العرق الهندو أوروبى » ومن ثم أخذوا يبحثون عن اسم أقصر من ذلك ، فاختاروا أخيراً كلمة « آريان » ، وذلك لأنهم وجدوا كلمة « آريانا » مذكورة فى الكتاب المقدس القديم « آفستا » فى رأس أسماء البلاد المخلوقة من قبل « هرمز » فاصطلحوا على استعمال هذه الكلمة للدلالة على العرق (الجنسى) المفترض المبحوث عنه

إن فكرة (الجنس الآرى) نشأت بهذه الصورة من التدقيقات اللغوية ، وانتشرت بعد ذلك انتشاراً كبيراً بفضل بساطتها من جهة ، و بتأثير بعض العوامل السياسية — التى وجدتها ملائمة لأهوائها من جهة أخرى

لكن هذه الفكرة لم تتأيد قط بالتدقيقات العلمية الحقيقية : إذ أن التدقيقات الواقعة برهنت برهنة قطعية على أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل والنسل ؛ وأن اللغات قد تنتقل من أمة إلى أمة ، من غير

أن يكون بينها علائق نسلية ؛ وأن الأمم التى اعتدنا أن نعتبرها آرية لا يشبه بعضها بعضاً من حيث الأوصاف البدنية ؛ فالفرض القائل بقرابة تلك الأمم من حيث النسل والدم ، إنما هو فرض واه لا يستند على أسس علمية

وقد نعت (جان فينو) J. Finot هذا الفرض بأنه (خرافات ومزاعم باطلة)

وقد صرح « ده نيكر » Denicker فى الكتاب الذى وضعه عن « الأقوام والأجناس » بأنه لا يوجد جنس — أى عرق — آرى ؛ وأن كل ما هنالك إنما هو « فصيلة لغات آرية » ، وربما « حضارة آرية » . وقد أكد أنه لم يعد فى استطاعة أحد من العلماء أن يقول بوجود جنس آرى تنتقل أوصافه بالدم من الأجداد إلى الأحفاد

وقد قال « مه ييه » Meillet فى كتابه « لغات العالم » ما يأتى : « كثيراً ما نتكلم عن أقوام رومانية ، وجنس سلافى ، ونموذج آرى . ولكن هذه التعبيرات عارية عن معان واضحة صحيحة ، لأنها لا تخلو من أحد الأمرين التاليين : إما أنها لا تضيف شيئاً إلى مفهوم قرابة اللغة ، وإما أنها تضيف إلى ذلك فكرة خاطئة »

وقد عبر « ماكس موللر » Max Mullar الشهير بتدقيقاته اللغوية الواسعة ـ عن حكم العلم فى هذه المسألة بتمثيل حاسم وجذاب ؛ إذ قال : « إن العالم الأتنولوجى الذى يبحث عن عرق آرى ، ودم آرى ، وعيون آرية ، وشعر آرى . . . يرتكب هرطقة . . . لا تقل سخافتها عن سخافة العالم اللغوى الذى يجرؤ على التكلم عن « قاموس

مستطيل الرأس » أو « نحو قصير الرأس »

وقد قال « ماير » : إن « الجنس الآرى » ، من مخترعات اللغويين ؛ وقال « هارتمان » : إن الآرى لم يوجد إلا فى مخيلة بعض الباحثين . وقال « جوهانه » : لم يبق اليوم من يقول بوجود جنس آرى ، لا بين علماء البشريات ولا بين علماء اللغات . إن لفظة « آرى » إنما تدل على صنف من اللغات واللهجات . وهذا الصنف من اللغات يتخاطب به أقوام كثيرة ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً

وخلاصة القول : إن إرجاع الفروق التى تشاهد بين سجايا الأقوام إلى اختلاف أجناسها وعروقها ، والقول بأن الأجناس البشرية يمتاز بعضها من بعض بأوصاف فطرية وراثية ، مما لا يقره العلم الحديث بوجه من الوجوه

وقد قال المفكر الشهير (جون استوارت ميل) : « إن رد الفروق التى تشاهد بين الأمم ، إلى ما فى طبائعها من اختلاف ، إنما هو نوع من التهوب ؛ هو تهرب من درس الأحوال الاجتماعية ، ومن تحرى عواملها الأساسية »

وقال العالم الاجتماعى المعروف (ربيله) Ripley : « لننبذ هذه الخرافة التى تعزو فضيلة خاصة أو ذكاء خاصاً ، إلى جنس من أجناس البشر »

وقال الباحث الاجتماعى الشهير (نوفيكوف) : إن التعليل بطبيعة العرق ، إنما هو بمثابة مِعطف سهل الاستعمال ، معطف نستعمله لنستر به جهلنا وكسلنا الذهنى لنستر به جهلنا لحقائق الأشياء ، وكسلنا عن تحرى الأسباب »

هذا ، وأستطيع أن أقول - مقتفياً أثر دوركهايم - إن تعليل قابليات الأمم بأوصافها الجنسية والعرقية ، لا يختلف كثيراً عن تأثير الأفيون ، بما يسمى « خاصيته المخدرة » أو عن تفسير النار بعمل ما يسمى « الجوهر النارى » . ومن المعلوم أن مثل هـذه التعليلات كانت من السفسطات واللغويات المعتادة فى القرون الوسطى ؛ وأن العلم الحديث قضى على أمثال هذه التعليلات الفارغة قضاء مبرماً

وقد قال الباحث الاجتماعى المعروف (كولاجانتى) : « أنا أسلم بوجود بعض الأوصاف النفسية الخاصة ، فى بعض الأفراد والجماعات ، غير أنى أنـكر قول الذين يزعمون أن هـذه الأوصاف تـكون ملـكاً خاصاً — أو ميزة فطرية خاصة — لجنس أو قوم أو أمة . وأنـكر بوجه خاص رأى الذين يزعمون بأن تلك الأوصاف تـكون مستقرة فى حياة الأمم وغير متبدلة ، إذ لا شىء ثابت ومستقر فى أوصاف الأقوام وأمزجتها ، وأما ما نشاهده الآن من الخصائص عند الأقوام ، فإنما هى خصائص الصفحة الحالية وحدها ... »

وقد قال المفـكر الاجتماعى « تارد » : إننا إذا رجعنا إلى ماضى الأقوام التى نراها الآن فى أوج العظمة والمجد — متصفة بقوة الإرادة وشـدة الإقدام ، وجدنا أنها كانت فقيرة ضعيفة ومحرومة من قوة الإقدام . وبعكس ذلك الأمم التى نراها الآن فى حالة الانحطاط ، فأننا إذا استعرضنا ماضيها ، وجدنا أنها كانت مثالاً للبطولة وممتازة بروح الإقدام والمغامرة ... »

ونفهم من ذلك كله : أن خصال الأقوام وسجاياها تتغير بتغير

أطوارها التاريخية

وقد عبر « جان فينو » عن هذه الحقيقة بهذا القول البليغ :

« إن مَثَل من يبحث عن الاستقرار فى نفسيات الأقوام كمثل من يزعم أن الدوائر التى تحدث على سطح الماء عند إلقاء حجر عليها تحافظ على شكلها إلى الأبد »

وأضاف إلى ذلك هذا الحكم القاطع :

« إن نظرية الأجناس ستشغل مكانا هاماً فى تاريخ أضاليل الفكر البشرى »

أظن أن أقوال العلماء التى ذكرتها آنفاً لا تترك مجالاً للشك فى خطأ الذين يتشاءمون من مستقبل الأمة العربية ، مستندين إلى نظرية « الآرية والسامية »

إن الأمة العربية كانت قد وصلت فيما مضى إلى أرقى درجات الحضارة ؛ وكانت أقوى منار للعلم فى العالم خلال عهد طويل . كما لعبت دوراً هاماً فى تاريخ تقدم البشر لم يتيسر مثله إلا لبضع أمم ... والأمة التى كانت وصلت إلى هذه المرتبة من التقدم ، لا يعقل ولا يمكن أن تصبح غير قادرة على النهوض

* * *

وأما الذين يستسلمون إلى القنوط والتشاؤم من كثرة المشاكل والمساوى التى يلحظونها . . . فإنى أدعوهم إلى التوسع والتعمق فى درس تواريخ النهضات القومية الحديثة ؛ لأنى أجد فيها أحسن الأدوية الشافية من داء التشاؤم والقنوط ، وأقوى المؤثرات الموقظة للإيمان القومى

لا شك فى أن سبيل النهضة والوحدة محفوفة بأنواع المشاكل والعقبات . ولا شك فى أن الموانع التى يجب علينا أن نقتحمها قبل أن نصل إلى غايتنا المنشودة كثيرة وكبيرة جداً . غير أن هذه المشاكل — مهما كانت عويصة — وهذه العقبات — مهما كانت عظيمة — يجب ألا تثنينا عن عزمنا ، وألا تزعزع إيماننا

يجب أن نعرف أن هذه المشاكل — من داخلية وخارجية — لم تكن خاصة بنا وحدنا ، بل إن كل أمة من الأمم التى نهضت وتوحدت منذ قرن ، جابهت من المشاكل مثل ما جابهنا ، وصادفت من العقبات مثل ما صادفنا . ولكن التاريخ يعلمنا أنها تغلبت فى آخر الأمر على جميع تلك المشاكل ، واجتازت كل تلك العقبات . وذلك لأن « الأمة » من الكائنات الطبيعية الحية ؛ وأن للحياة قوة ، وللطبيعة أحكاما

فلا يجوز لنا أن نراع من كثرة المشاكل وأن نفزع من هول العقبات ، بل يجب علينا أن نؤمن إيماناً راسخاً بأن تلك المشاكل والعقبات ، ستتلاشى أمام نهضتنا القومية ، وستزول أمام قوة حقنا فى الوحدة والحياة

يجب على كل منا أن يحمل هذا الإيمان ، وألا يفسح مجالاً لتسرب القنوط إلى قلبه . يجب على كل منا أن يؤمن إيماناً قوياً بأن الأمة العربية التى قامت فى الماضى قومتها الجبارة ولعبت دورها العالمى الخطير ، لا بد أن تقوم من كبوتها الحالية ، ولا بد من أن تستعيد المكانة اللائقة بماضيها المجيد ، فى تاريخ العالم الجديد ...

بين الوطنية والأممية

[من محاضرة ألقيت بنادى المثنى ببغداد]

الوطنية من أهم وأقوى النزعات الاجتماعية المتأصلة فى النفوس البشرية . ومع هذا فأنها لا تسلم من أعداء وخصوم تسعى إلى كسر قوتها وإضعاف تأثيرها . وإنى سأتحدث إليكم هذه الليلة عن أهم عن أعداء الوطنية وأخطر خصومها

عند ما أقول «أعداء وخصوم» ، لا أقصد بقولى هذا «الأشخاص والأفراد» ؛ بل أقصد « الميول والنزعات » لا أقصد الأشخاص والأفراد الذين يعادون وطنهم ويخونون أمتهم ، بل أقصد الميول النفسية والنزعات الفكرية التى تعاكس الدواعى الوطنية وتوجه العواطف والأعمال إلى اتجاه يخالف اتجاهها

إن أهم وأعم الميول النفسية التى تعارض الوطنية وتعاديها بهذه الصورة ، هى « الأنانية » لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية ، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملذات على كل شىء ، على حين أن (الوطنية) على عكس ذلك — تدعو إلى (الإيثار) و (التضحية) فى سبيل الوطن والقومية . إنها تطلب من كل شخص أن يحب وطنه ، ويخدم أمته بكل ما أوتى من قوة ، وأن يضحى بشىء كثير من راحته وهناءته فى هذا السبيل ، حتى إنها تطلب منه أن يوصل هذه التضحية إلى درجة (بذل النفس والحياة) عند اللزوم

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الأنانية تعمل على الدوام عملاً معاكساً لدواعى الوطنية . فالوطنية لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن تتغلب على الأنانية المعادية لها

غير أن الأنانية لا تعادى النزعة الوطنية وحدها ، بل تعادى جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية على اختلاف أنواعها . فكسر قوة الأنانية ليس من الأمور التى تتطلبها النزعة الوطنية وحدها ، بل هو من الأمور التى تتطلبها سائر النزعات الأخلاقية بأجمعها

ولذلك نستطيع أن نقول : إنه خلال النضال العنيف الذى يحدث بين الوطنية والأنانية ، لا تبقى الوطنية بدون أنصار ، بل إنها تجد لنفسها عدة أنصار من سائر النزعات الأخلاقية التى تشترك معها فى هذا النضال .

* * *

غير أن هناك بعض النزعات التى تعادى الوطنية دون أن تعاكس سائر الفضائل الأخلاقية ؛ فالوطنية لا تجد لنفسها أنصاراً من تلك الفضائل خلال مناضلة مثل هذه النزعات ، فتتحمل أعباء النضال بمفردها بطبيعة الحال .

أما منشأ هذه النزعات المعادية للوطنية ، فهو الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التى تعتبر الوطنية من « النزعات البالية المضرة » ، فتدعو الناس إلى نبذها والتخلص منها

لعل أقدم هذه الآراء والمذاهب هو الفكرة التى تعرف فى بلاد الغرب باسم « كوزموبو ليتيه » Cosmopolitisme بمعنى « مواطنية

العالم » ، أو بتعبير أقصر « العالمية » هذه الفكرة تدعو الناس إلى الترفع عن النزعات الوطنية الخاصة ، وتطلب إليهم أن ينزعوا إلى « حب العالم » دون أن يفرقوا بين مختلف الأوطان

أما الملاحظات التى تستند إليها فكرة العالمية — فيمكن أن تلخص بهذه الكلمات

ما الفرق بين الأوطان المختلفة ؟ أليست كلها من أجزاء الأرض التى نعيش عليها ؟ ... وما قيمة الحدود التى تفصل الأوطان بعضها عن بعض ؟ أليست كلها من الأمور الاعتبارية التى أوجدتها الوقائع الحربية أو المناورات السياسية ؟ ... وما الفرق بين الأمم المختلفة ؟ أفلم تنحدر كلها من أصل واحد ؟ أفلا يجدر بالإنسان — والحالة هذه — أن يسمو بأفكاره وعواطفه فوق الأوطان وفوق الأمم ؟ فليعتبر الأرض بأجمعها « وطناً » كما يعتبر أبناء البشر بأجمعهم « مواطنين » ؟

لقد مر — فى الحقيقة — فى تاريخ حياة البشرية عهود طويلة كانت فيها (الرابطة الوطنية) ضيقة محدودة ، لا يتعدى نطاقها أسوار بعض المدن ، كما كانت فيها الرابطة القومية محدودة المدى ، لا يتجاوز تأثيرها حلقات بعض القبائل ؛ فقد شهد التاريخ (الدور) الذى ارتفعت فيه الحدود من بين المدن التي كانت متخالفة ؛ وانتفت فيه الضغائن من بين القبائل التى كانت متعادية ، فتوسعت فيه فكرة الوطنية والقومية إلى ما وراء حدود المدن ونطاق القبائل ، فوصلت إلى الحدود التى نشاهدها فى الحالة الحاضرة . إن سلسلة التطورات التى حدثت بهذه الصورة إلى الآن تدل على أن هذا التوسع سيستمر على الدوام ؛ فسيأتى يوم

تندمج فيه الأوطان المختلفة فى بعضها البعض إلى أن يصبح (العالم) (الوطن المشترك) لكل الناس ، كما تمتزج فيه الأمم المختلفة ببعضها البعض ، إلى أن تصبح (الإنسانية) بمثابة (القومية المشتركة) بين جميع أبناء البشر . وأما (النزعة الوطنية) التى نعرفها الآن فستزول حتماً بتقدم البشر وتسامى العواطف ، وستترك محلها إلى عاطفة إنسانية ، وأخوة شاملة ؛ فيجدر بالمفكرين أن يسبقوا سائر الناس فى استقبال هذا التطور الجديد فيسموا بأنفسهم — من الآن — فوق الوطنيات الخاصة ، ويعملوا بهذه الصورة على سرعة حلول عهد الإنسانية الحقة

هذه هى سلسلة الآراء والملاحظات التى تستند عليها فكرة (الكوزمو بوليتيه) أى (فكرة العالمية)

لا شك فى أن هذه الآراء لا تخلو من قوة جذب وإغراء . إنها تفسح أمام الأذهان مجالاً واسعاً لأحلام الأخوة البشرية وأمانى السلم الدائم ؛ وتلوّح أمام الخيال بعالم جديد ، أرقى وأسمى من العالم الذى نعيش فيه الآن ، فمن الطبيعى أن تستولى هذه الآراء - من الوهلة الأولى - على بعض النفوس التواقة إلى الكمال ، ولو كان فى الخيال

لقد انتشرت الفكرة — فعلاً — انتشاراً كبيراً بين المفكرين فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، ولا سيما فى ألمانيا ، حيث أصبحت النزعة السائدة فى عالم الفكر والفلسفة ؛ فكان معظم الفلاسفة والأدباء - من كوته إلى لسينغ ، ومن هردو إلى شللينغ - يقولون بها ويدعون إليها ؛ فكان (كوته) — مثلا — يترفع عن النزعة الوطنية ، ويقول : « وقانا الله منها » ؛ وكان (هردر)

يعتبر الوطنية من النزعات التى لا تليق بالمتنورين والمفكرين

ومما يجدر بالانتباه والملاحظة ، أن هذه النزعة الفكرية — مع انحدارها فى الأصل من روح التشوّق إلى الكمال — تتفق فى النتيجة مع روح الاستكانة السلبية ، وتكتسب لذلك قوة من ميول الأنانية الخفية ، لأن « فكرة الإنسانية والعالمية » نزعة أفلاطونية لا تتطلب من الفرد عملاً سريعاً وتضحية فعلية . على حين أن الوطنية نزعة واقعية ، تتصل بالحياة الحالية وتتطلب من المرء أن يقوم ببعض الأعمال والتضحيات بصورة سريعة . فالانصراف عن النزعة الوطنية استناداً إلى « الفكرة الإنسانية » يكون بمثابة الانصرافَ عن الأعمال الإيجابية استكانة إلى الأوضاع السلبية . ولهذا السبب يتفق الانصراف اتفاقاً كبيراً مع روح الأنانية التى كثيراً ما تتقنع بأقنعة خداعة وتسير وراءها كثيراً من الميول النفعية

لقد انتبه « جان جاك روسو » إلى هذه الحقيقة ، فانتقد « الفكرة العالمية » بأسلوب لاذع ، فقال : « إن بعض الناس يحبون أبناء الصين ، لكي يتخلصوا من الواجبات الفعلية التى تترتب عليهم من جراء حب أبناء وطنهم الأقربين »

وعلى كل حال ، يمكننا أن نقول : إن فكرة « العالمية » انتشرت فى القرن التاسع عشر انتشاراً كبيراً بسبب تشوق المفكرين إلى الكمال الخيالى من جهة . وبدافع ميل الناس إلى التخلص من ثقل الواجبات الفعلية من جهة أخرى

وهذا الانتشار صار عظيماً فى البلاد الألمانية بوجه خاص ؛ أولاً

لموافقة الفكرة لروح الفلسفة السائدة بين مفكرى الألمان عندئذ ، وثانياً لعدم اصطدامها هناك بنزعة وطنية قوية ، بسبب انقسام الألمان إلى دويلات كثيرة ، واشتباك منافع هذه الدويلات وأمرائها اشتباكاً يحول دون نمو النزعات الوطنية والقومية نمواً سريعاً ، إننا نجد فى إحدى الكلمات التى كان قالها المفكر الألمانى « شله يجل » دليلاً قاطعاً على ما أسلفناه ، فقد قال : (من العبث أنْ نحاول تكوين أمة ألمانية ، فالأجدر بنا أن نأخذ بالفكرة العالمية ونخدم الإنسانية ...)

واستمر الحال فى البلاد الألمانية على هذا المنوال حتى غزوة نابليون وهزيمة (يه نا)

ولا شك فى أن الانهزام الهائل الذى منى به الجيش البروسى فى واقعة (يه نا) كان من أبرز نتائج ضعف النزعة الوطنية وانتشار الفكرة العالمية . فإن الجنود كانوا ينهزمون من ساحة القتال ، تاركين أسلحتهم فيها دون أن يحاولوا استعمالها لصد غارة العدو الزاحف إلى بلادهم

غير أن كل ما حدث بعد ذلك ، بدّد الأحلام العالمية والأمانى الإنسانية التى كانت مستولية على النفوس . وأظهر لكل ذى عين بصيرة الفروق الهائلة بين (الوطن) الذى ينتسب إليه ، و بين غيره من الأوطان ، و بين الأمة التى ينحدر منها و بين غيرها من الأمم

فإن الذين كانوا انهزموا من ميدان القتال دون أن يستعملوا أسلحتهم لصد غارة الجيوش الأجنبية ، اضطروا — بعد بضع سنوات من تاريخ الواقعة — إلى الانخراط فى سلك الجيوش المذكورة ، ليخدموا مآرب قائدها الخاصة . إنهم أرغموا على التجنيد وعلى العمل تحت إمرة قواد

فرنسيين ، ليحاربوا برغم أنوفهم ضد الدول والأمم التى أراد زعيم الفرنسيين الاستيلاء عليها دون أن يكون فى كل ذلك أدنى مصلحة لهم ولوطنهم الخاص ولأمتهم الحقيقية

وهكذا قد شاهد مفكرو الألمان بأعينهم ، أنه بينما كانوا يغطون فى أحلام الإنسانية والعالمية ، استولت على بلادهم جيوش أمة بعيدة عن تلك الأحلام ، ومتشبعة بروح الوطنية ، بأشد وأقوى أشكالها . فأخذت تلك الأمة تسيطر عليهم ، تستعبدهم وتذيقهم أنواع الذل وتسوقهم إلى حيث تريد .

فكان من الطبيعى أن تنقلب الآراء والنزعات السائدة فى ألمانيا انقلاباً هائلاً ، تحت تأثير الدروس القاسية التى ألقتها هـذه الوقائع والنكبات . وفى الواقع لم يمض على واقعة (يه نا) مدة طويلة ، إلا وقد تركت الفكرة العالمية محلها إلى حماسة وطنية شديدة و يقظة قومية جبارة ، وهذه الحماسة الوطنية واليقظة القومية هى التى أدت إلى نهظة بروسيا المعلومة ، وخلصتها من نير الفرنسيين ، ثم قادت الأمة الألمانية بأجمعها نحو الاستقلال والوحدة ، والقوة ، والعظمة

ومن المفيد لنا أن نتتبع هذا التطور العميق ، فيما قاله وكتبه بعض مفكرى الألمان أنفسهم فى ذلك العهد . أود أن أذكر لكم مثالين بارزين ، أحدهما من الحكماء وهو : (فيختته) ، والثانى من الشعراء وهو : (آرنت) :

عند ما يذكر اسم (فيختته) فى ألمانيا ، يتبادر إلى الأذهان حالاً الخطب الحماسية التى وجهها إلى الأمة الألمانية خلال أيام النكبات التى

ذكرناها . تعتبر هذه الخطب من أهم عوامل النهضة فى ألمانيا ، ومن أقوى موجهات القومية فيها

ألقى فيخته خطبه الأربع عشرة فى مدرج جامعة برلين ، عند ما كانت الجيوش المحتلة تقوم باستعراضات متوالية فى شوارع العاصمة البروسية وميادينها. تحتوى هذه الخطب على نظريات فلسفية فى تاريخ حياة الأمة الألمانية ، وأبحاث شائقة عن الحيوية الكامنة فيها وعن وسائل التربية التى تكفل تجديد حياتها . وكل هذه النظريات والأبحاث ترمى إلى غاية واحدة ، هى استنهاض الهمم فى سبيل بعث الأمة الألمانية وإعادة بناء مجدها

إن خطب فيخته تنم عن روح وطنية متأججة ، وتدعو إلى نزعة قومية متعصبة . ولا سيما الخطبة الختامية ، فإنها تعتبر آية من آيات التحميس والاستنهاض ، يوجه فيخته فى خطبته هذه بعض الكلمات إلى الشباب ، ثم إلى الكهول ، ثم إلى رجال الدولة والمفكرين والأدباء ، وأخيراً الأمراء ، مصدراً كل واحدة من هذه الكلمات بقوله :

« إن خطبى تستحلفكم و تبتهل إليكم ... »

بعد ذلك يضطرم حماسة فيقول لهم جميعاً : « إن أجدادنا أيضاً يستحلفونكم معى ، ويضمون صوتهم إلى صوتى » ويأخذ فى تصوير صوت الأجداد بأسلوب حماسى جذاب . ثم يعقب ذلك بقوله :

« إن أخلافكم أيضاً يتضرعون إليكم ... » ويشرح صوت الأخلاف بأسلوب مؤثر جذاب

وأخيراً ينهى الخطبة بكلمات تدل على شعوره بغرور قومى عميق :

« ... ولو تجاسرت ، لأضفت إلى كل ما تقدم ، قائلا : إن القدرة الفاطرة أيضاً تستحلفكم وتستنهضكم . لأنه لم يبق على وجه الأرض أمة حافظت على بذور قابلية التكمل البشرى بقدر ما حافظت عليها أمتكم المجيدة . فإذا سقطت الأمة الألمانية ، سقط معها الجنس البشرى بأجمعه ، ولا يبقى له أدنى أمل فى السلامة ... »

تصوروا أيها السادة أن هذا المفكر الذى استرسل فى التحمس إلى القومية الألمانية بهذه الصورة العجيبة ، ظل بعيداً عن التفكير فى الوطن والوطنية حتى نكبة « يه نا » الأليمة . تجاوز العقد الرابع من عمره ولم يكتب كلمة واحدة عن الوطن والوطنية ، مع أن أبحاثه الفلسفية كثيراً ما كانت تتناول مسائل الحياة الأخلاقية والاجتماعية . بل بعكس ذلك أظهر ميلاً واضحاً نحو النزعة العالمية ، حتى إنه فى أحد الدروس التى ألقاها وهو فى الثانية والأربعين من عمره احتقر الذين يرون وطنهم فى الأرض والأنهر والجبال . فقال : « إننى أسأل ما هو وطن الأوربى المسيحى المتمدن حقيقة ؟ هو أوربا بوجه عام ، والدولة الأوربية التى تشغل الصف الأعلى فى سلم الحضارة على وجه أخص » (وكان فيختته يشير فى قوله هذا إلى الدولة الفرنسية نفسها)

وإن المدة التى مرت بين نشر هذه الكلمة وبين حدوث واقعة « يه نا » كانت تسعة أشهر فقط ، وأما المدة التى مرت بين نشر هذه الكلمة وبين إلقاء الخطب الوطنية التى ذكرتها فلم تتجاوز الثلاث سنوات . فإن الوقائع التى حدثت خلال هذه المدة القصيرة اضطرت فيختته إلى الانتقال من الفكرة العالمية المتساهلة إلى

النزعة الوطنية المتشددة وجعلته من أشد المتعصبين للقومية الألمانية ومن أقوى وأنشط الداعين إليها

وأما « آرنت » فقد اشتهر بأشعاره الوطنية التى أيقظت فى نفوس الألمان روح الحماسة والتضحية ، وأوقدت فى قلوبهم روح النخوة والحمية فى تلك الأيام الملوءة بأنواع المصائب والنكبات

فاسمحوا لى أن أقرأ على مسامعكم نموذجاً من أشعاره الحماسية :

« أعطونى وطناً حرا ، وأنا أرضى عندئذ أن أفقد كل شهرتى فيصبح اسمى منسياً ، لا يذكر فى غير دارى ودار جارى

«أعطونى بقعة من أرض جرمانية ، يستطيع فيها العندليب أن يغرد دون أن يرمى بسهم فرنسى

« أعطونى كوخاً حقيراً يستطيع أن يصيح ديكى فوق حاجزه ، دون أن يقع فريسة فى يد فرنسى . وأنا أصيح عندئذ مثل الديك ، وأغرد مثل العندليب ، بكل فرح وسرور ، ولو أفقد كل ما ملكته يداى ، فلم يبق لى شىء يستر جسمى غير قميص بال »

تصوروا أيها السادة أن هذا الشاعر الذى أظهر مثل هذا الشعور الوطنى الرقيق بهذا الشكل الطريف ، فى هـذا الشعر الحماسى وفى مئات من أمثاله . هذا الشاعر أيضاً كان بعيداً عن فكرة الوطن والوطنية — بتأثير النزعة العالمية السائدة حوله إذ ذاك — حتى حروب نابليون . إنه اعترف بذلك بنفسه فقال : (إننى عرفت وطني فى ثورة الغضب ، وأحببته فى ساعة النكبة)

أعتقد أن هذين المثالين يكفيان لإظهار التطور العميق الذى حدث

فى الآراء والنزعات فى البلاد الألمانية عقب استيلاء الفرنسيين عليها فى العقد الأول من القرن التاسع عشر

نستطيع أن نقول : إن الفكرة العالمية فقدت قوتها ونفوذها فى ألمانيا تماماً وتركت محلها لروح وطنية متأججة ، استمر اضطرامها طول القرن التاسع عشر

ولكنها لم تندثر تماماً فى سائر البلاد ، بل على عكس ذلك - وجدت فى بعضها تربة صالحة لنموها — تحت شكل جديد ، هو فكرة السلم الدائم العام

فلقد تشكلت عدة جمعيات تدعو إلى السلم والتآخى منذ سنة ١٨١٤ حين تألفت أول جمعية من جمعيات السلم فى أمريكا ، وأخذت تسعى لنشر مبادئها بين المفكرين والناس بصور ووسائل شتى . إنها أخذت تدعو إلى توحيد الأوطان ، حتى إنها لم تتردد فى بعض الأحيان من توجيه حملات عنيفة على الوطنية فى سبيل هذه الدعوة . إن فكرة السلم والتآخى وجدت بهذه الصورة عدداً غير قليل من الأنصار والمريدين بين الأدباء والمفكرين ورجال الدين . وصار هؤلاء يعقدون سلسلة مؤتمرات أممية بقصد نشر فكرة السلم والتآخي بين الأمم

غير أننا إذا تتبعنا سير انتشار هذه الفكرة نجد أن هـذا الانتشار لم يجر باطراد على وتيرة واحدة — فإن الفكرة كانت تنتشر انتشاراً لا بأس به مدة من الزمن ، ثم تنحسر فجأة ، عندما تصطدم بالوقائع ، وتشهد حدوث حروب جديدة ، تبدد الأحلام المستولية على الأذهان ، وتثير ضغائن جديدة بين الأمم

نستطيع أن نجد خير مثال لذلك فيما كتبه وقاله الشاعر الفرنسي العظيم (فيكتور هوجو) . انجذب هـذا الشاعر إلى فـكرة توحيد الأوطان ونشر ألوية السلم على العالم ، فاشترك فى مؤتمرات السلم ، وألقى فى بعضها خطباً ، وأرسل إلى بعضها رسائل . وفى كل ذلك أظهر نزوعاً شديداً نحو السلم العام وإيماناً عميقاً بتوحيد الأوطان . وتخيل فى إحدى خطبه العهـد الذى ستتحد فيه الدول الأوربية بأجمعها ، والعهد الذى ستتصافح فيه (الولايات المتحدة الأوربية) والولايات المتحدة الأمريكية من وراء البحار . وتوحد أعمالها لخير البشر العام . كما أنه حلم بالعهد الذى ستنتقل فيه المدافع إلى المتاحف ، وستترك القذائف محلها لأوراق التصويت فى ندوة عالمية تـكون السيادة فيها للمناقشة العلمية والرأى الحر . وتحت تأثير هذه الأحلام وجه الشاعر دعوة حارة لإزالة الحدود والفوارق من بين الأمم قائلاً : إن رأس البلاء هو الحدود ؛ لأن مفهوم الحدود يتضمن المخفر ، والمخفر يتطلب الخفير ، والخفير يستوجب الجيش ، والجيش يدعو إلى الحرب . فلنحذف الحدود : لـكى نرى ألوية السلم سائدة على العـالم ، وروح السلم منتشرة بين البشر

ومن غريب المصادفات أن هوجو كان أرسل هذا البيان إلى مؤتمر السلم الذى انعقد فى لندن سنة ١٨٦٩ ، أى قبل نشوب حرب السبعين بسنة واحدة فقط . وما كادت الحرب تنشب بين فرانسة وألمانية ، حتى ترك الشاعر هـذه الأحلام جانباً وأخـذ يبدع سلسلة أشعار حماسية تتأجج فيها روح وطنية ثائرة

إن هذا الشاعر لم يكن من الشواذ فى هذا الباب . بل ظهر له أمثال كثيرون فى كثير من البلاد . فعدد غير قليل من المفكرين انجذبوا مدة من الزمن إلى فكرة توحيد الأوطان ، ثم عادوا إلى النزعة الوطنية والقومية تحت تأثير الوقائع والحوادث

لا ننكر أن البعض ظل متمسكا بهذه الفكرة طول حياته كما فعل (تولستوى) الشهير ، فإنه ظل يدعى أن (الوطنية) من بقايا العهود الهمجية ، وأن من يعيش عيشة فكرية حقيقية لا يمكن أن يعترف بالوطن والوطنية ... وظل يدعو الناس إلى نبذ النزعات الوطنية مهما كانت أشكالها ، وإلى الامتناع عن الحروب مهما كانت الأسباب الداعية إليها . غير أن (روزفلت) الكبير كان أجاب على آراء « تولستوى » فى إحدى خطبه بكلمة طريفة جداً إذ قال :

« نعم ، قد يأتى عهد — فى أغوار عصور المستقبل البعيد — تفقد فيه الوطنية قيمتها وفائدتها . كما أنه قد يأتى عهد يندثر فيه نظام الأسرة فالزواج . غير أنه يجب أن نعرف جيداً أن الرجل الذى لا يفرق بين وطنه وسائر الأوطان — فى المجتمع الذى نعيش فيه الآن — يكون عنصراً مضراً ، كالرجل الذى لا يفرق بين زوجته وسائر النساء ... »

إن دعاة السلم العام والأخوة البشرية الشاملة الذين ظهروا طول القرن التاسع عشر ، وحتى أوائل القرن العشرين — حتى الحرب العالمية — كانوا يتكهنون بقرب تحقق أحلامهم وأمانيهم . غير أن الوقائع والحوادث كانت تأتى على الدوام معاكسة لتلك الأمانى والأحلام .

إنهم كانوا يتكهنون بأن ساحات الحرب ستتحول إلى أسواق تجارية ؛ غير أن الوقائع أتت بنتائج معاكسة لذلك تماماً . لأن الأسواق التجارية أصبحت مثاراً للحروب

كانوا يقولون إن المدافع ستنتقل إلي المتاحف . ولا ننكر أنه قد حدث شيء من ذلك . فإن المدافع التى كان يعرفها هؤلاء الدعاة انتقلت فعلاً إلى المتاحف ، غير أن ذلك لم يحدث من جراء انتصار فكرة السلم العام ، كما أنه لم يؤد إلى تقوية الفكرة المذكورة . إنه حدث من جراء اختراع أنواع جديدة من المدافع التى تتفوق قوتها الحربية

كانوا يوجهون أنواع السهام إلى « الحدود » التى تفصل الدول عن بعضها البعض ، وكانوا يتمنون زوالها خدمة للسلم العام . فقد حدث فعلا فى الحدود التى كانوا يعرفونها انقلابات عظيمة أدت إلى تبدل عشرات منها وزوال مئات . غير أن كل ذلك لم يحدث على أساس توحيد الأمم بأجمعها ، ولا على أساس توحيد الأمم المتمدنة وحدها ، بل حدث من جراء تحقيق النزعات القومية وإعادة بناء الدول حسب مقتضيات تلك النزعات . فقد اتحدت الدويلات الكثيرة التى كانت تنقسم إليها الأمم ؛ فكونت دولة كبيرة أشد وطنية وأصلب قومية من جميع الدويلات التى اندمجت فيها . هذا ، ومن جهة أخرى فقد تجزأت بعض الدول الكبيرة التى كانت تتألف من أمم مختلفة النزعات ، وانقسمت إلى عدة دول مستقلة بعضها عن بعض ، غير أن ذلك أيضاً حدث بتأثير النزعات القومية وأدى إلى تقوية تلك النزعات

إزاء هذه النتائج الفعلية فقدت الفكرة العالمية كل ما كان لها من قوة ؛ فأخذت فكرة السلم العام ونزعة الأخوة البشرية اتجاهاً جديداً يختلف عما كان يقصده دعاة العالمية كل الاختلاف

هذا الاتجاه الجديد هو الدعوة إلى التعاون والتضامن بين الأمم ، داخل نطاق الوطنية والقومية تماما ، فلتبق كل أمة متمسكة بوطنيتها ، على أن تحترم الأمم الأخرى أيضاً ، فلتبق كل أمة مستقلة فى شؤونها ، على أن تتعاون مع سائر الأمم فى مختلف ساحات النشاط البشرى من العلم والثقافة إلى الاقتصاد والمواصلات

إن هذه النزعة الجديدة لم تكن من نوع التمنيات الخيالية ، بل هى من النزعات العملية التى أنتجت نتائج باهرة ، وساعدت على تكوين « مؤسسات أممية » كثيرة من « اتحاد البرق والبريد الأممى » إلى « مؤسسة التعاون الفكرى الأممى » لا سيما بعد الحرب العالمية

نستطيع لذلك أن نقول : إن « نزعة الوطنية » خرجت سالمة ظافرة من الكفاح العنيف الذى حدث بينها و بين « فكرة العالمية » بأشكالها المختلفة

***

غير أن الوطنية ــ بالرغم من تغلبها على النزعات المعادية التى ذكرناها آنفاً ــ وجدت نفسها منــذ مدة أمام نزعة معادية أخرى أشد خطراً من تلك ، هذه النزعة هى « الأممية والشيوعية »

إن دعاة هذه « النزعة الأممية » لم يحلموا بآمال السلم العام ، ولم يعللوا أنفسهم بأمانى الأخوة البشرية الشاملة . بل إنهم على عكس ذلك

آمنوا بضرورة الحرب واستعدوا لها . غير أنهم قالوا إن هذه الحرب يجب أن تنشب بين الطبقات . يجب على عمال العالم أن يتحدوا على اختلاف أوطانهم ليحاربوا الرأسماليين مهما كانت قومياتهم

إن دعاة الأممية الشيوعية يريدن تغيير نظام المجتمع الحالى من أساسه ، ويعتقدون أن ذلك لا يمكن أن يتم دون ثورة وحرب ، ويقولون إن هذه الثورة يجب ألا تتقيد بقيود الوطنية ، بل يجب أن تعمل ضدها

يقول هؤلاء إن الوطنية من وسائل حكم الرأسمالية ؛ وهى من الأسلحة التى تستعملها الرأسمالية لخداع الصعاليك واستخدامهم لأغراضها الخاصة ؛ فلا يمكن أن يتأسس النظام الشيوعى ما لم تهدم فكرة الوطنية الخداعة وتمحى الحدود التى تولدت منها . فالأممية الشيوعية تدعو إلى نبذ الفكرة الوطنية ، ومحاربة الرأسمالية أينما كانت ، وبأية وسيلة كانت . لذلك تطلب إلى العمال أن يتحدوا دون أن يلتفتوا إلى الحدود التى أقامتها النزعات القومية الوطنية ، ودون أن يتقيدوا بالروابط التى أوجدتها هـذه النزعات . ولهذا السبب تبدأ دعوتهم كل يوم بهذه النشرات :

« عمال العالم . . . اتحدوا »

تدعو الأممية الشيوعية جميع عمال العالم إلى الاتحاد ، لأنها تقول بأن وطن العامل هو المعمل وحده ، وأما مواطنه الحقيقى فهو العامل مهما كانت قوميته ، كما أن عدوه الأصلى هو الرأسمالى مهما كان الوطن الذى ينتسب إليه ، فعدو العامل الفرنسى مثلا — ليس الجندى الألمانى أو الإنكليزى أو الروسى ، بل هو الرأسمالى ، سواء أكان من

الفرنسيين أو الألمان أو الإنكليز أو الروس . فيجب على جميع عمال العالم أن يتحدوا لمحاربة الرأسماليين على اختلاف أوطانهم وقومياتهم

وإذن يجب أن تفكك أوصال الأوطان الموجودة وتنحل الروابط الوطنية الحالية ، يجب أن تزول كل هذه الروابط التي تجمع « العمال وأصحاب رؤوس الأموال » في كل وطن تحت لواء واحد ، وتفرق بين العمال الذين ينتسبون إلى دول وأوطان كثيرة . يجب أن تترك هذه الروابط الوطنية محلها لرابطة جديدة مؤسسة على أساس الطبقات . بهذه الصورة ، وبهذه الصورة وحدها ، يتم النصر للنظام الشيوعي في كل العالم ، وبهذه الصورة وحدها تتم سيادة العمال ورفاهيتهم

هذه هي – على وجه الإجمال – أهم الآراء التي تدلي بها « الشيوعية الأممية » في أمر النزعات الوطنية

إن هذه الدعاية الأممية ، كانت تقوم على عواتق بعض الأفراد والجمعيات ، حتى الحرب العالمية الماضية . غير أن الشيوعيين تمكنوا – أواخر الحرب العالمية – من الاستيلاء على أعنة الحكم ، في دولة من أعظم دول العالم ، وأسسوا فيها نظاماً شيوعياً . وهذه الدولة الشيوعية – أي روسية السوفيتية – أخذت على عاتقها مهمة الدعوة إلى الأممية في كل أنحاء العالم ، وصارت تقوم بهذه المهمة بكل ما لديها من وسائل مادية ومعنوية ، من أموال وافرة إلى تشكيلات منتظمة

إن آلام الفقر وآمال الرفاهة ، التي تستولي على نفوس العمال من جهة ، والدعاية الخلابة التي تقوم على تشكيلات واسعة النطاق ومحكمة الترتيب من جهة أخرى . . . قوت النزعة الأممية الشيوعية في بعض

البلاد ، وأقامت بهـذه الصـورة أمام النزعة الوطنية عدواً جديداً خطراً جداً

ومن الطبيعى أن النزعة الوطنية لم تتقاعس عن العمل تجاه هـذا العدو بطبيعة الحال ؛ إنها أخذت تناضل الأممية الشيوعية بحزم شديد وقوة كبيرة ؛ فانتصرت عليها في بعض البلاد . غير أن النضال لا يزال سجالا بين النزعتين ، مادة وجهاراً فى بعض البلاد ، معنى وخفية فى البعض الآخر

— ٢ —

إن هذه الأسطر كتبت قبل ست سنوات . والآن ، بعد أن حدث ما حدث فى روسيا السوفيتية منذ ذلك التاريخ ، ولا سيما منذ نشوب الحرب العالمية الجديدة ، نستطيع أن نقول : إن « فـكرة الوطنية » قد انتصرت على « فـكرة الأممية » حتى فى روسيا السوفيتية نفسها . لأن الدولة المذكورة أخذت تتباعد عن الدعوة الأممية شيئاً فشيئاً إلى أن قررت حل و إلغاء « الأممية الثالثة » بتاتاً . زد على ذلك أنها تركت نشيدها « الأممى » المعروف ، ذلك النشيد الذى كان يدعو على الدوام جميع عمال العالم إلى الاتحاد على اختلاف أجناسهم وأوطانهم .

وبهذه الصورة قد ثبت مرة أخرى أن « فـكرة الاشتراكية » ــ مهما كان نوعها ــ لا تعارض « الفكرة الوطنية » فى حد ذاتها ؛ حتى إن مبادئ الشيوعية نفسها لا ترتبط بـ « فـكرة الأممية » بطبيعتها . ومن أبرز الأدلة على ذلك الخلاف الذى كان قام بين أنصار ستالين

الذين يقولون بالوطنية السوفيتية ، و بين أنصار « تروتسكى » الذين كانوا يتمسكون بالأممية ، و يقولون بضرورتها لحياة البلشفية . ومن المعلوم أن الخلاف المذكور قد انتهى بانتصار الحزب الأول على الحزب الثانى انتصاراً حاسماً

ولذلك نستطيع أن نقول : إن فكرة الأممية فقدت أكبر وأقوى الدعائم التى كانت تستند إليها ، وفقدت معها حدتها وخطورتها

مع هذا لا نستبعد أن تبقى فكرة الأممية عالقة ببعض الأذهان ؛ ولهذا نرى من المفيد أن نلفت الأنظار إلى أضرار هذه الفكرة ، ونعيد هنا الملاحظات التالية عن الوطنية والأممية

إن الانقلاب الصناعى الذى بدأ فى أوائل القرن الأخير — والذى لم ينته إلى الآن — زاد في فروق الثروة بين الناس زيادة هائلة ، وأوصل مشاكل المعيشة إلى درجة لم يسبق لها مثيل . لا شك فى أن هذا التطور العظيم الذى حدث فى الحياة الاجتماعية كان يتطلب نظرات وأنظمة حقوقية جديدة تضمن للكل حق الحياة والعمل ، بالعدل الذى يقتضيه هذا التطور العميق

غير أن الحكومات لم تقدر خطورة هذه الأوضاع حق قدرها . فلم تقدم على سن القوانين الضرورية لمعالجتها . وَذلك أحدث مجالاً واسعاً أمام أصحاب رءوس الأموال للاستبداد بحياة العمال بدون تأمل ، وللاسترسال فى استغلال أتعابهم بدون إنصاف . وهذه الحالة ولّدت الاشتراكية التى أخذت تطالب الحكومات بوضع حد لهذا الاستبداد ، وسن قوانين جديدة تثبت حقوق العمل وتضمن إنصاف العمال ، وتمنع تضخم رءوس

الأموال على ضرر الآلاف بل الملايين من العمال وشقائهم . غير أن الحكومات — قاومت فى بادىء الأمر الحركة الاشتراكية ومطالبها مقاومة شديدة ، وهذه المقاومة أدت إلى حدوث سلسلة ثورات واعتصابات عنيفة ، كما استوجبت تفرع الاشتراكية إلى فروع ومذاهب متنوعة ؛ فاختلفت لذلك المذاهب الاشتراكية اختلافاً كبيراً ، من المعتدلة إلى المتطرفة ، ومن الوطنية إلى الأممية ...

أنا لا أخالف من يدعو إلى الاشتراكية ، حتى إننى لا أعارض من يقول بالشيوعية ، غير أننى أطلب إلى هؤلاء ألا يمزجوا دعوتهم هذه بالفكرة الأممية ، وألا يجعلوا حركتهم معادية للنزعة الوطنية ، لأننى أعتقد أن الأضرار التى تنجم من الإصغاء إلى الدعاية الأممية لا تكون متساوية فى كل البلاد ، بل إنها تزداد أو تنقص ، تبعاً لحالة « الوطنية » فيها :

تصوروا أمة ناهضة ، متحدة ، متصفة بشعور قومى عميق ، ونزعة وطنية شديدة ، قد تأصلت الوطنية والقومية فى نفوس أبنائها ، حتى إنها دخلت فى طور الإفراط والتعدى ، فصارت تحمل القوم على التوسع على حساب غيرها من الأمم . لا شك فى أن رياح النزعة الأممية إذا هبت على نفوس أمة كهذه لا تستطيع أن تقتلع شجرة الوطنية من جذورها ، فلا يتعدى تأثيرها حدود بعض الأمور الطفيفة من نوع إسقاط الأوراق ، أو كسر الأغصان . إن انتشار فكرة الأممية بعض الانتشار بين أبناء تلك الأمة لا يزعزع بناء الوطنية زعزعة خطرة ، وكل ما يعمله ينحصر فى كسر ثورة الإفراط وتخفيف أطماع التوسع والاستعمار

ثم تصوروا أمة — على عكس ذلك — متأخرة فى حضارتها ، متفرقة فى سياستها ، مترددة فى وطنيتها ، استيقظت من سبات عميق فى عهد قريب ، فلم يمض على يقظتها هذه ، الوقت الكافى لاختمار الفكرة القومية فى نفوس أبنائها ، فلم يتم بعد « تكون الشعور القومى » و « تأصل النزعة الوطنية » فى تلك النفوس . لا شك فى أن تأثير الرياح « الأممية » على أمة كهذه يكون خطراً جداً . لأنه يقف اختمار الفكرة القومية فى مبادئها ويحول دون تكوّن الشعور القومى العام فى بدء عهده ، ويميت تباشير النزعة الوطنية الحقة قبل أن تتأصل فى النفوس

إننى أعتقد بأن نظرة واحدة إلى حالة البلاد العربية والأمة العربية — على ضوء هذه الإيضاحات — تكفى للدلالة دلالة قطعية على أن انتشار النزعة الأممية — ولو انتشاراً قليلاً — يكون مضراً جداً ، بل مهلكا وقتالاً بالنسبة إلى أبناء الضاد

فيجب علينا أن نبذل أقصى الجهود لمنع تسرب النزعة الأممية إلى النفوس فى جميع الأقطار العربية

فقد قال أجدادنا :

بلادى وإن جارت على عزيزة

وأهلى وإن ضنوا علىّ كرام

أعتقد أن هذا المقال يتضمن أحسن وأبلغ الأجوبة على نظرية الأممية الماركسية

أنا لا أود أن أقول بذلك ، إنه يجب علينا أن نترك الأمور على حالها فلا نفكر فى إزالة الجور عن أفراد الأمة . بل أقول — يعكس ذلك — بأنه يجب علينا أن نبذل كل الجهود لإصلاح الأحوال و إزالة الجور بأقصى ما يمكن من السرعة . على ألا نخرج فى أعمالنا وتدابيرنا عن مقتضيات الوطنية ، وأن نعتقد فى كل حين :

أن الوطن قبل كل شىء ، وفوق كل شىء . . .

بين الوحدة الاسلامية
والوحدة العربية

لقد قرأت وسمعت — إلى الآن — آراء وملاحظات كثيرة حول المفاضلة « بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية » . وصرت أتلقى — منذ مدة — أسئلة متنوعة حول هذه القضية :

لماذا تهتم بالوحدة العربية ، وتهمل الوحدة الإسلامية ؟

ألا ترى أن هدف الوحدة الإسلامية أسمى من هدف الوحدة العربية ؟ وأن القوة التي تحصل من اتحاد المسلمين تكون أعظم من التي تحصل من اتحاد العرب ؟

ألا تسلم بأن الشعور الديني في الشرق أقوى بكثير من الشعور القومي ؟ فلماذا تريدنا أن نهمل استغلال ذلك الشعور القوي ، وننفق قوانا في سبيل تقوية هذا الشعور الضعيف ؟

هل تعتقد أن اختلاف اللغات يحول دون اتحاد المسلمين ؟ أفلا تلاحظ أن (مبادئ الشيوعية والاشتراكية والماسونية وغيرها تجمع بين أناس اختلفت لغاتهم وأجناسهم وبلادهم وأقاليمهم ، ولم يمنعهم هذا الاختلاف كله من أن يتفاهموا ويتقاربوا ويجتمعوا على خطة واحدة ومبدأ واحد) ؟ أفلا تعرف بأن (كل مسلم في سورية أو مصر أو العراق يعتقد بأن المسلم الهندي ، أو الياباني ، أو الأوربي أخ له ، كأخيه المسلم الذي يعيش معه جنباً إلى جنب ؟ ففيم استحالة تحقيق الوحدة الإسلامية ؟)

يقول البعض : (إن الوحدة الإسلامية أقوى من كل وحدة سواها ، و إن تحقيقها أسهل من تحقيق أية وحدة أخرى) ما رأيك فى هذا القول ؟

ويدعى البعض —مخطئاً— : (أن فكرة الوحدة العربية دسيسة يقصد من ورائها الحيلولة دون توسع فكرة الوحدة الإسلامية ، وذلك لفصل بعض أقطار العالم الإسلامى ، ويتيسر إدامة السيطرة عليها) ماذا تقول فى هذا الادعاء ؟

... لقد سمعت وقرأت — ولا أزال أسمع وأقرأ — أسئلة كثيرة من هذا القبيل خلال محادثات شفهية ، أو فى رسائل خصوصية ، أو فى كتب مفتوحة

فرأيت أن أخصص هذا المقال لمعالجة هذه المسائل معالجة وافية ، لأشرح رأيى فيها بصراحة كافية

— ١ —

أعتقد بأن القضايا الأساسية التى يجب درسها وحلها عند التفكير فى « المفاضلة بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية » تتلخص فيما يلى :

هل « الوحدة الإسلامية » من الآمال المعقولة التى يمكن تحقيقها ، أم هى من الأحلام الطوبائية التى لا يمكن تحقيقها ؟

وعلى فرض الشق الأول : أتحقيقها أسهل أم أصعب من تحقيق الوحدة العربية ؟

وهل يوجد شىء من المنافاة بين هاتين الوحدتين ؟

وهل من سبيل إلى تحقيق الوحدة الإسلامية ، دون تحقيق الوحدة العربية ؟

عند ما نقدم على إعمال الذهن وإنعام النظر فى مثل هذه المسائل يترتب علينا — قبل كل شىء — أن نحدد ما نعنيه من الوحدة الإسلامية والوحدة العربية بوضوح تام ، وأن نعيّن نطاق شمول كل واحد من هذين التعبيرين بصراحة كاملة :

من الأمور التى لا تحتاج إلى شرح ، أن الوحدة العربية تتطلب إيجاد وحدة سياسية من الأقطار العربية المختلفة التى يتكلم أهلوها باللغة العربية ؛ وأما الوحدة الإسلامية فتتطلب — بطبيعة الحال — إيجاد وحدة سياسية من البلاد الإسلامية المختلفة التى يدين أهلوها بالديانة الاسلامية ، بالرغم من اختلاف لغاتهم وأجناسهم

ومن المعلوم أن العالم الاسلامى يشمل : الأقطار العربية ، وتركية وإيران ، والأفغان ، وتركستان ، مع قسم من الهند ، وجزر الهند الشرقية وبلاد القفقاس ، وأفريقيه الشمالية مع قسم من أفريقيه الوسطى ... بقطع النظر عن بعض الكتل المتفرقة فى أوربا وآسيا : فى ألبانيا ، ويوغسلافيا وبولندة والصين واليابان ...

ولا حاجة لبيان أن الأقطار العربية تشغل القسم المركزى من العالم الفسيح

إن كل من يضع هذه الحقائق الراهنة نصب عينيه — ويتصور خريطة العالم الإسلامى ويلاحظ موقع العالم العربى فيها — يضطر إلى التسليم بأن الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الإسلامية ؛ وبأن

هـذه الوحدة لا يمكن أن تتحقق — على فرض إمكان تحققها — إلا بالوحدة العربية

إذ لا يمكن لأى عاقل أن يتصور حصول اتحاد بين القاهرة و بغداد وطهران وكابل وحيدر آباد و بخارا ، وكاشغر وفارس وتمبكتو ... دون أن يحصل اتحاد بين القاهرة و بغداد ودمشق ومكة وتونس . لايمكن لأى عاقل أن يقول بإمكان اتحاد الترك والعرب والفرس والملايو والزنج دون اتحاد العرب أنفسهم

لو كان العالم العربى أكبر سعة وأكثر شمولا من العالم الإسلامى — بعكس ما هو الواقع الآن — لأمكن أن نتصور وحدة إسلامية دون وحدة عربية ؛ ولجاز أن نقول إن تحقيق الوحدة الإسلامية أسهل من تحقيق الوحدة العربية . غير أنه لما كان الأمر بعكس ذلك تماماً ، فلا مجال منطقى لمثل هذه الأقوال والتصورات بوجه من الوجوه

إن هذه الحقيقة يجب ألا تعزب عن بالنا ، عند ما نفكر ونتكلم فى أمر الوحدة الإسلامية والوحدة العربية

إن فكرة الوحدة الإسلامية أوسع وأشمل من مفهوم الوحدة العربية ، غير أنه ليس من الممكن أن نقول بالوحدة الإسلامية دون أن نقول بالوحدة العربية

ولهذا السبب يحق لنا أن ندعى أن كل من يعارض الوحدة العربية يكون قد عارض الوحدة الإسلامية أيضاً . وأما من عارض الوحدة العربية ، باسم الوحدة الإسلامية أو بحجة الوحدة الإسلامية ، فيكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة

- ٢ -

بعد إثبات هذه الحقيقة - التي لا مجال منطقي للاختلاف فى شأنها - يجدر بنا أن نلتفت إلى حقيقة ثانية لا تقل أهمية عنها :

يجب علينا ألا ننسي أن المقصود من تعبير « الوحدة » فى هذا المقام هو الوحدة السياسية ؛ كما يجب علينا أن نلاحظ على الدوام أن مفهوم « الوحدة الإسلامية » يختلف عن مفهوم « الأخوة الإسلامية » اختلافاً كبيراً

فإن الاتحاد شى والتعاطف شىء آخر ؛ والاتحاد السياسى شىء ، والاتفاق على مبدأ من المبادىء شى آخر

فالدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، تختلف بهذا الاعتبار عن الدعوة إلى إصلاح أحوال الإسلام ، كما تختلف عن الدعوة إلى زيادة التفاهم والتقارب والتضامن بين المسلمين

ولذلك نستطيع أن نقول : إن من يتكلم عن مبدأ الأخوة الإسلامية ومن يبحث عن فوائد التفاهم بين المسلمين لا يكون قد برهن على إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية

و بعكس ذلك . من لا يسلم بإمكان تحقيق الوحدة الإسلامية ، لا يكون قد أنكر مبدأ الأخوة الإسلامية ، أو قد عارض مساعى النهوض والتفاهم بين المسلمين

فكل ما يقال عن مبـدأ الأخوة لا يكون دليلاً كافياً على إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية

وأما الاستشهاد على إمكان الوحدة الإسـلامية بالماسونية ، أو الاشـتراكية أو الشيوعية ، فليس موافقاً للعقل والمنطق بوجه من الوجوه ؛ لأن الماسون لم يؤلفوا وحدة سياسية ؛ والأحزاب الاشتراكية فى الممالك الأوربية المختلفة لم تتحد لتـكوين دولة واحدة ؛ حتى الشـيوعية نفسها لم تكون دولة جديدة . . . بل حلت محل الدولة الروسـية القيصرية ...

فيجب علينا أن نميز بين مسألة الأخوة الإسـلامية ومسألة الوحدة الإسلامية تمييزاً صريحاً ، وأن نفـكر فى إمكان أو عدم إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية بمعناها السياسى تفـكيراً مباشراً

— ٣ —

إذا ألقينـا نظرة عامة على التاريخ ، واستعرضنا تأثيرات الأديان فى تكوين الوحدات السياسية ، نجد أن الأديان العالمية لم تتمكن من توحيد الشعوب التى تتكلم بلغات مختلفة إلا فى القرون الوسطى ، وذلك فى ساحات محدودة فقط ، ولمدة قصيرة من الزمن فحسب

فإن الوحدة السياسية التي حاولت الكنيسة المسيحية تكوينها ، لم تستطع أن تجمع العالم الأورتودكسي مع العالم الكاثوليكى فى وقت من الأوقات . كما أن الوحدة السياسية التى سعت لتكوينها البابوية فى العالم الكاثوليكى نفسه لم تعمر مدة طويلة من الزمن

وكذلك كان الأمر فى العالم الإسلامى : — فإن الوحدة السياسية التى وجدت فى صدر الإسلام لم تقو على تقلبات الأيام مدة

طويلة . والخلافة العباسية نفسها لم تستطع أن تجمع كل المسلمين تحت رايتها السياسية ، حتى عند بلوغها أوج قوتها وقمة عظمتها . كما أن البلاد التي كانت تخضع لسلطان الخلافة المذكورة نفسها ، لم تحافظ على وحدتها السياسية بصورة فعلية مدة طويلة ، ولم يمض وقت طويل على تأسيس الخلافة المذكورة إلا وقد أصبحت سلطتها على بعض الأقطار معنوية أكثر منها مادية ، فلم تقو على الحيلولة دون انفراط عقد الأقطار المذكورة ، وتحولها إلى وحدات سياسية عديدة مستقلة بعضها عن بعض بصورة فعلية

ومما هو جدير بالانتباه فى هذا الصدد أن انتشار الدين الإسلامى فى بعض الأقطار قد تم بعد أن فقدت الخلافة الإسلامية وحدتها الفعلية وقوتها الحقيقية ؛ حتى أن هـذا الانتشار جرى فى بعض الأقطار بصورة مستقلة عن تأثير السلطات السياسية ، وذلك على أيدى دعاة من التجار والشيوخ والدراويش . فالعالم الإســلامى بحدوده الواسعة الحالية ، لم يكوّن وحدة سياسية فى وقت من الأوقات

فالوحدة السياسية التى لم تتحقق فى القرون الماضية ـ فى عهود بساطة الحياة الاجتماعية وسذاجة العلائق السياسية وفى أدوار سيطرة التقاليد الدينية على كل ناحية من نواحى الأعمال والأفكار ... ليس من الممكن أن تحقق فى هذا القرن ، بعد أن تعقدت الحياة الاجتماعية وتعضلت المشاكل السياسية ، وخرجت العلوم والصناعات من سيطرة التقاليد والمعتقدات

— ٤ —

إننى أعرف أن ما قررته هنا لا يروق الكثيرين من علماء الإسلام ، أعرف أن الدلائل التاريخية التى ذكرتها آنفاً لا تستطيع أن تؤثر فى معتقد الكثيرين من رجال الدين ، وذلك لأنهم قد تعودوا التكلم فى هذه المسائل دون تذكر الحقائق التاريخية وملاحظة المصورات الجغرافية ، كما أنهم لم يألفوا التمييز بين مدلول « الأُخوة الدينية » ومدلول — « الرابطة السياسية » ، بل إنهم نشأوا على المزج بين مبدأ «الأُخوة الإسلامية» بمعناها الأخلاقى ، و بين فكرة (الوحدة الإسلامية) بمعناها السياسى

أنا لا أرى مبرراً للسعى وراء اقتناع هؤلاء بخطأ اعتقادهم فى هذا الأمر ، غير أنى أرى من الضرورى أن أطلب إليهم ألا ينسوا مقتضيات العقل والمنطق فى هذا السبيل : لهم أن يحافظوا على اعتقادهم فى إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية ؛ غير أن عليهم أن يسلموا فى الوقت نفسه بضرورة السعى إلى الوحدة العربية ، على الأقل ، كمرحلة من مراحل تحقيق الوحدة الإسلامية التى يعتقدون بها ؛ عليهم — على كل حال — ألا يعارضوا المساعى التى تبذل فى سبيل تحقيق الوحدة العربية ، بحجة خدمة الوحدة الإسلامية التى يدعون إليها

وإنى أكرر هنا ما كتبته آنفاً : إن من يعارض الوحدة العربية بحجة الوحدة الإسلامية يكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق

مخالفة صريحة ، وأقول بلا تردد : إن مخالفة المنطق إلى هذا الحد لا يمكن أن تتأتى إلا من الخداع أو الانخداع

خداع بعض الشعوبيين الذين لا يرتاحون إلى نهوض الأمة العربية ، فيسعون إلى تهييج الشعور الدينى ضد فكرة الوحدة العربية

وانخداع بعض السذج الذين يميلون إلى تصديق كل ما يقال لهم مقروناً باسم الدين ، دون أن ينتبهوا إلى ما قد يكون وراء هذه الأقوال من المقاصد الخفية ...

فأرى من واجبى أن ألفت أنظار جميع المسلمين العرب إلى هذا الأمر الهام ، وأطلب إليهم ألا ينخدعوا بأوهام الشعوبيين فى هذا الباب

— ٥ —

لعل أغرب وأخدع الآراء التى أبديت حول قضية « الوحدة العربية والوحدة الإسلامية » هو الرأى القائل بأن فكرة الوحدة العربية خلقت لمحاربة « الوحدة الإسلامية » ، وذلك لفصل بعض الأقطار الإسلامية تسهيلاً لإدامة السيطرة عليها .

إننى لا أستطيع أن أتصور رأياً أكثر بعداً عن حقائق التاريخ والسياسة ، وأشد مخالفة لأحكام العقل والمنطق من هذا الادعاء الغريب

فإن التفاصيل التى ذكرتها آنفاً عن علاقة الوحدة الإسلامية بالوحدة العربية تكفى لإظهار خطل هذه المدعيات من حيث الأساس

مع هذا ، أرى أن أضيف إلى تلك التفاصيل بعض الملاحظات لزيادة البرهان والإيضاح :

لا ينكر أن الإنكليز سايروا الحركة العربية وصانعوها أكثر من سائر الدول . وما ذلك إلا لأنهم أكثر عملية فى السياسة ، وأسرع فهماً لنفسيات الأمم وحقائق الاجتماع ... إنهم عرفوا القوة الكامنة فى الفكرة العربية قبل غيرهم ؛ فرأوا أن يسايروها بعض المسايرة ويصانعوها بعض المصانعة — بدلا من محاربتها مباشرة — ليدفعوا ضررها عنهم ويجعلوها أكثر ملاءمة لمضالحهم

يجب أن نعرف جيداً أن السياسة الإنكليزية سياسة عملية ، تتكيف مع الظروف ، وتنتهز الفرص على الدوام ، ويجب ألا ننسى أن بريطانيا العظمى هى التى خلصت الدولة العثمانية — التى كانت صاحبة الخلافة الإسلامية — من استيلاء الروس عدة مرات ؛ وهى التى كانت أوقفت الجيوش المصرية فى قلب الأناضول ، لتخليص مقر الخلافة الإسلامية من استيلاء تلك الجيوش الظافرة ؛ وهى التى كانت حالت دون اتحاد مصر مع سورية فى عهد محمد على الكبير

فكل من يتهم فكرة الوحدة العربية بأنها دسيسة أجنبية ، يكون قد قال بخدعة ليس وراءها خدعة ، ووقع فى الخداع ليس وراءه الخداع .

يجب أن نعلم حق العلم أن فكرة الوحـــدة العربية فكرة طبيعية ، لم يوجدها موجد ، إنها نتيجة طبيعية لوجود الأمة العربية نفسها ، هى قوة اجتماعية ، تستمد نشاطها من حياة اللغة العربية ، وتاريخ الأمة العربية ، واتصال البلاد العربية . فلا يستطيع أحد أن يدعى

— بصورة منطقية — أن الإنكليز هم الذين خلقوا فكرة الوحدة العربية ، إلا إذا استطاع أن يبرهن على أن الإنكليز هم الذين خلقوا اللغة العربية ، وأوجدوا تاريخ الأمة العربية ، وكونوا جغرافية البلاد العربية .

إن فكرة الوحدة العربية من العبارات الطبيعية التى تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعية ، لا من الآراء الاصطناعية التى يستطيع أن يبتدعها الأفراد ، أو تستطيع أن تخلقها الدول

إنها ظلت كامنة — شأن الكثير من القوى الطبيعية والاجتماعية — منذ عدة قرون ، لأسباب وعوامل تاريخية كثيرة ، لا مجال لشرحها هنا ، غير أن كل شيء يدل على أن دور كمونها قد انتهى ، وأن تيارها أخذ يظهر للعيان ، وصار يتدفق شيئاً فشيئاً

ولا شك فى أن تيار هذه الفكرة سيزداد تدفقا من جميع النفوس العربية بسرعة متزايدة تزايداً هائلاً . وسوف لا يلبث حتى يغمر جميع البلاد العربية ، ويعيدها إلى مجدها السالف ونضرتها الأولى . بل إلى ما هو أخصب وأقوى وأسمى منها

هذا ما يجب أن يكون إيمان كل متنور من الناطقين بالضاد

بين الماضى والمستقبل

[خطاب ألقى على فريق الـكشاف العربى
في قاعة متحف الآثار العربيـة ببغـداد]

أيها السادة :

يسرنى أن أحيي فريق الـكشاف العربى تحت سقف هذا البناء القديم ، باسم دائرة الآثار القديمة

إننى أحيي فريق الـكشاف العربى باسم دائرة الآثار القديمة مع علمى بأن الـكثيرين من الحاضرين سيستغربون قولى هذا ، وسيتساءلون : ما شأن الآثار القديمة بالأعمال الـكشفية ؟

فى الواقع ، أيها السادة ، أن الـكشاف يمثل « الشباب المتجدد » وأعمال الـكشافة كلها بمثابة « استعداد المستقبل » على حين أن هذه البناية هى «موئل القديم» ، وكل ما فيها « مثال الماضى ومرآة التاريخ» ، فجمع الـكشافة فى هذه البناية القديمة بين القاعات المملوءة بالآثار القديمة ، يظهر فى الوهلة الأولى بمثابة « الجمع بين الأضداد » ، مثل : « الجمع بين الماضى والمستقبل »

غير أننا ، أيها السادة ، إذا تعمقنا فى البحث قليلا ، نضطر إلى التسليم بأن الماضى والمستقبل ليسا متناقضين إلا من حيث المعنى اللغوى . وأما من وجهة « العمل الاجتماعى » فإنهما مترابطان ومتلازمان . فإن الماضى منبع المستقبل على الدوام ، كما أنه من عوامل الدفع إلى الأمام ،

فى كثير من الأحيان . ولا سيما فى حياة الأمم التى تستفيق من سباتها وتنزع إلى النهوض بعد الرقود

لقد قال أحد المفكرين إن الأموات لا يرقدون فى المقابر فى حقيقة الأمر ، بل إنهم لا يزالون يعيشون فى نفوس الأحياء ، ويسيطرون على الكثير من أعمالهم فى كثير من الأحيان . إن هذا القول يحتوى على قسط كبير من الحقيقة ، لا سيما فى حياة الأمم . فلأجل أن ننتفع من ذلك جيداً ، يجدر بنا أن نلقى نظرة عامة على أهم مقومات الأمم :

إن كل أمة من الأمم تكوّن شخصية معنوية تتصف بالحياة والشعور ، وتمتاز ببعض النزعات والميول

إن حياة الأمة تقوم بلغتها ، بوجه عام ، أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس — فى حقيقة الأمر — إلا فى الحرمان من اللغة الخاصة بها . إن الأمة التى تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها ، وتصبح مستعبدة لها ؛ ولكنها لا تفقد حياتها ، ما دامت محافظة على لغتها ، فقد قال أحد المفكرين : « إن الأمة المحكومة التى تحافظ على لغتها تشبه السجين الذى يمسك بيده مفتاح باب سجنه ... » إنها تبقى حية ، ما بقيت محافظة على لغتها ؛ إنها تبقى مستعدة للحرية والاستقلال ما دامت متمسكة بلغتها . وأما إذا فقدت هذه اللغة فتكون قد فقدت الحياة ، تكون قد اندمجت فى الأمة المستولية عليها ، وفقدت كل ما لها من عناصر الكيان ، إنها تكون قد زالت من عالم الوجود ، وبتعبير أقصر « ماتت » بكل معنى الكلمة

إن اللغة تكوّن روح الأمة وحياتها وتمثل أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها . أليست ميراث الأجيال الماضية ، وَهدية الحوادث التاريخية بوجه عام ؟ أفلا يحق لنا آن نقول إنها تربط الماضى بالمستقبل على الدوام ؟

* * *

هذا ، ويجدر بنا أن نلاحظ ، أيها السادة ، علاوة على كل ذلك أن الحياة ليست كل ما يهم الوجود . فإن هناك شيئا آخر ، لا يقل أهمية عن الحياة ، وإن كان تابعا لها : ألا وهو الشعور . إن للأمم شعوراً ، كما للأفراد . فالشعور القومى بالنسبة إلى حياة الأمم ، مثل الشعور الشخصى بالنسبة إلى حياة الأفراد

قلنا إن حياة كل أمة من الأمم تقوم بلغتها ، ويجب أن نعرف فى الوقت نفسه أن شعور كل أمة من الأمم يتكون من ذكرياتها التاريخية الخاصة بها

فالأمة التى تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها تكون بمثابة فرد فاقد الشعور ، بمثابة فرد غاطٍ فى النوم ، أو بمثابة مريض فى حالة الإغماء . إنه لا يزال على قيد الحياة ، غير أن حياته هذه لا تكتسب قيمة إلا إذا استيقظ من نومته ، واستعاد الشعور الذي فقده مدة من الزمن

فيحق لنا أن نقول : إن إهمال التاريخ القومى يكون بمثابة الاستسلام إلى الذهول والكرى ، وأما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور

هذه حقيقة يعرفها جيداً رجال الحكم والاستعمار ، ويستفيدون منها على الدوام ، فهم عند ما يستولون على أمة من الأمم ، يبذلون قصارى

جهدهم لإبعاد ذاكرتها عن تاريخها الخاص . إنهم يتوسلون بكل الوسائل الممكنة لتخدير الأمة وتنويمها ، عن طريق الحيلولة بينها و بين تاريخها القومى . إنهم يعرفون جيداً أن الشعور القومى عند الأمم المحكومة يأخذ فى الخمود والتضاؤل كلما أسدل النسيان سدوله على التاريخ القومى ، إلى أن ينعدم تماماً ، بنسيان التاريخ الخاص نسياناً تاماً

أما عودة الشعور القومى إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا باستعادة الذكريات التاريخية . إن حركات النهوض والانبعاث ومجاهدات الاستقلال والاتحاد عند تلك الأمم تبدأ — بوجه عام — بتذكر الماضى واستلهام التاريخ . استعرضوا تواريخ استقلال الأمم التى كانت مغلوبة على أمرها ثم نهضت وتخلصت من ربقة الاستعباد ، تفهموا جيداً أن حب الاستقلال يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ، والتوقان إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ، كما أن الإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ، والنزوع إلى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة

ومما يجب أن ألفت أنظارنا فى هذا المضمار ، أن خطة استلهام الماضى والاستفادة من التاريخ تظهر للعيان حتى فى أعمال الأمم التى تقوم بثورات عنيفة ، وتحاول قلب حياتها الاجتماعية رأساً على عقب ، بصورة جذرية وفورية . إن تلك الأمم تثور فى حقيقة الأمر على الماضى القريب وحده وتحاول خلال ثورتها هذه أن تستمد قوة من الماضى البعيد . أنعموا النظر فى تاريخ ثورات ووثبات تلك الأمم — مثل اليابان وتركيا

الحديثة — تجدوا فيه أيضاً بجانب حركات التجديدات الجذرية ، اهتماماً متزايداً بالأبحاث التاريخية ، وتغلغلاً مستمراً فى استخدام التاريخ لتقوية الروح القومية وإيجاد النزعات التجديدية

إن أمر الاهتمام بالتاريخ والالتفات إلى الماضى ، ليس من الخطط الخاصة بالأمم التى كانت فى حالة تأخر وسبات ، بل هى من الأمور التى تشمل جميع الأمم بدون استثناء . تعمقوا فى دراسة أحوال أرقى الأمم العصرية ، وأنعموا النظر فى أحسن الشوارع والميادين فى أرقى المدن الحديثة ، تجدوا فى جميعها آثار اهتمام عظيم بالماضى والتاريخ ، تجدوا فى جميعها عدداً كبيراً من الأنصاب والتماثيل والألواح التذكارية ، وسلسلة طويلة من المهرجانات والاحتفالات ، يقصد منها تذكير الماضى للناس وترسيخ التاريخ فى الأذهان

ولهذه الأسباب كلها أقول فى كل حين : إن الماضى منبع فياض للمستقبل ، والتاريخ قوة مهمة فى حياة الأمم

ولهذه الملاحظات ، رأيت من الواجب على فريق الكشاف العربى ، أن يذهب إلى سامراء ليقضى يوماً كاملاً فى التجوال بين أطلالها ، ويطلع على الآثار الباقية من عهد الأمبراطورية العباسية . ثم يعود إلى هنا ليجتمع معنا فى هذه البيئة التاريخية ويتأمل مدة فى ماضى أمتنا العزيزة ويستمد من ذكريات هذا الماضى قوة جديدة فى جهوده القادمة . ولهذا أقدمت على تحيته باسم دائرة الآثار القديمة

* * *

أيها السادة ، إنى لا أحب المغالاة ، بل أنزع دائماً إلى مجابهة

الحقائق فى كل وجوهها . و بعد أن شرحت لكم ما أعتقده من خطورة الدور الذى يلعبه التاريخ فى حياة الأمم ، أرى من واجبى أن أقول لكم كلمة عن مضاره أيضاً ، لكى أحذركم منها

إن الحياة الاجتماعية فى غاية من التعقيد ، والعوامل الاجتماعية فى منتهى التشابك ، ولذلك قلما نجد بين تلك العوامل ما هو مفيد على الإطلاق ، ومجرد عن الشوائب والأضرار فى كل الأحوال . إن الفوائد والأضرار فى الحياة الاجتماعية تتشابك بشكل غريب ؛ فاجتناء الفوائد مع توقى الأضرار ، مما يحتاج إلى يقظة كبيرة وانتباه شديد فى معظم الأحوال .

إن تأثير التاريخ والماضى فى حياة الأمم لا يشذ عن هذه القاعدة العامة ؛ فإنه أيضاً قد يصبح مضراً فى بعض الأحوال .

فإن التاريخ يكون مفيداً عندما يفرغ على شكل « قوة دافعة » تحركنا إلى الأمام ، كما ذكرته لكم إلى الآن ؛ غير أنه يصبح مضراً حين يأخذ شكل « قوة جاذبة » تدعونا إلى العودة إلى الوراء . فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضى هدفاً نتوجه نحوه ، ونسعى للعودة إليه ، بل يجب علينا أن نجعل منه نقطة استناد نستند إليها فى اندفاعنا إلى الأمام ؛ يجب علينا أن نكون منه قوة فعالة حافزة ، تدفعنا نحو المستقبل الجديد ؛ و بتعبير أقصر : شعارنا فى هذا الباب يجب أن يكون : « تذكر الماضي ، مع التطلع إلى المستقبل على الدوام »

واسمحوا لى أن أشرح لكم قصدى من هذا الشعار بذكر بعض الأمثلة :

كلكم تعلمون أن سيرة خالد بن الوليد من أجل السير التى سجلها التاريخ ، فيجب علينا أن ندرسها بكل اهتمام . ولكن لماذا ، وبأى قصد ؟ أبقصد الحصول على دروس فى فنون التعبئة والحرب ؟ كلا . فإن الخطط الحربية التى كانت تضمن النجاح والنصر فى عصر خالد ابن الوليد ، لا يمكن أن تفيد فى هذا العصر بوجه من الوجوه . ولا مجال للشك فى أن الخطط الحربية التى تضمن النصر والنجاح فى عصر الدبابات والطيارات والغواصات ، فى عصر المدافع الضخمة والقذائف الهدامة ، والغازات الخانقة ، تختلف كل الاختلاف عن الوسائل التى كانت تؤدى إلى النصر فى العصور السالفة ؛ فكل من يحاول أن يجد فى خطط خالد بن الوليد دروساً فى فنون الحرب قابلة للتطبيق فى العصر الحاضر يكون قد أقدم على عمل لا يتفق مع العقل والمنطق بوجه من الوجوه .

غير أنه ، أيها السادة ، يجب أن نعرف أن الحروب لا تتم بالوسائل والقوى المادية وحدها ، بل إنها تحتاج إلى قوى معنوية متنوعة ، علاوة على القوى المادية ، أهمها : الوطنية الصادقة ، والإيمان بإمكان النصر ، مع الإقدام على إحرازه بحزم وثبات ، وجرأة وشجاعة ، لا تتأخر عن نوع من أنواع التضحية . إن هذه القوى المعنوية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً فى الحروب في جميع العصور ، مهما كانت الوسائل المادية المستعملة خلالها ، سواء أكانت من نوع السهام أم القذائف أم الجمال أم الطيارات . إن سيرة خالد بن الوليد مملوءة بأمثلة عليا للقوة المعنوية . وإذا ما أقدمنا على درس سيرة خالد

ابن الوليد ، فيجب أن ندرسها لـكى نستفيد من تلك القوى المعنوية ، وإذا ما بحثنا عنها فيجب أن نبحث بقصد استثارة قوى معنوية مماثلة لها ، لا بقصـد محاولة الحرب على الطريقة التى مشى خالد بن الوليد عليها

وكذلك ، كلكم تعلمون بأن أجدادنا العظام أسدوا إلى الطب من الخدمات ما لا ينساه التاريخ بوجه من الوجوه ؛ فيجب علينا أن ندرس تلك الخدمات ، نطلع عليها ونتذكرها على الدوام ، ولـكن لماذا ؟ وبأى قصد ؟ هل يجوز لنا أن نفعل ذلك بقصد الاستفادة من آراء كبار أطباء العرب فى مداواة الأمراض ؟ لا مجال للشك فى أن ذلك يكون فى منتهى السخافة . يجب علينا أن ندرس خدمات العرب للطب ، لا بأمل أن نجـد فى اكتشافاتهم ما يفيدنا فى أمر التطبب والمداواة بل لنزداد مباهاة بأعمال أجدادنا العظام ولنزداد إيماناً بقابليات أمتنا الـكامنة ؛ ولنحصل على دوافع باطنية تحفزنا على القيام بخدمات تشبه خدماتهم الغالية . إن أطباء العرب القدماء خدموا الطب خدمة كبيرى ، ومشوا فى مقدمة العالم فى هذا المضمار قروناً عديدة ... إن خدمات هؤلاء يجب أن تولد فى نفوسـنا طموحاً لإحراز مكانة عالية فى الطب الحديث ، مثل المـكانة التى كان أحرزها هؤلاء فى العصور التى عاشوا وعملوا فيها .

ولذلك قلت إنه يجب علينا أن نستمد من التاريخ قوة معنوية تثير فى نفوسنا نزعات التقدم إلى الأمام ، وتحفزنا نحو مجد المستقبل ، على الدوام ...

أما أهم النزعات التى يجب أن نستلهمها من التـاريخ فهى فى نظرى الإيمان بحيوية الأمة العربية . وبإمكان حصولها على مجد

جديد ، لا يقل شأناً عن المجد الذى كانت نالته فى سالف العصور

إننا فى حاجة إلى مثل هذا الإيمان فى هذا الزمان ، أكثر من أى زمان آخر ، لأن المصائب انصبت على العالم العربى من كل حدب وصوب . ومن المعلوم أن كثرة المصاعب والمصائب ، تفتح باباً إلى تسرب الفتور والقنوط إلى القلوب التى لا تتزود بالأمل الضرورى ، ولا تتقوى بالعقيدة الراسخة

ونحن نعلم أن الأمل ، من أهم عوامل السعي والعمل ، وأما القنوط فهو من أهم دواعى التقاعد والعجز ، ولهذا السبب نستطيع أن نقول : إن تطهير القلوب من شوائب الفتور والقنوط ، وتزويدها بالأمل والإيمان يجب أن يكون من أهم أهداف العاملين . ولا سيما فى الظروف التى أحاطت بالعالم العربى خلال هذه السنين الأخيرة

وبهذه الوسيلة ، وقبل أن أختم كلمى ، أود أن أذكركم بإحدى الأساطير اليونانية ، وهى أسطورة باندور :

باندور كانت إلٰهة جمة الخصال ، تكونت من عطايا جميع الإلٰهات . إن كل إلـهة من الإلٰهات الموجودة إلى ذلك الحين ، أعطتها شيئاً من خصالها . ولهذا السبب سميت هذه الإلهة الجديدة باسم (باندور) بمعنى عطية الـكل

عند ما غضب جو بتر على هركول ، وأراد أن ينتقم منه ، فكر فى إغرائه بواسطة باندور : سلمها علبة سحرية ، وطلب إليها أن توصلها إليه دون أن تفتحها وتطلع على ما فيها . وحملت باندور هذه العلبة ، غير أنها لم تستطع أن تتغلب على حب الاستطلاع فى نفسها ، ففتحت العلبة

فى طريقها، وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوئ والشرور، وينتشر فى الأرض بسرعة العاصفة، مع أزيز هائل. اندهشت باندرو من كل ذلك وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لإعادة غطاء العلبة بسرعة . . . غير أنها إلى أن تمكنت من ذلك ، كان قد خرج من العلبة جميع الشرور ، ولم يبق فيها إلا شيء واحد ... وكان ذلك الذى بقى فى العلبة مقابل جميع تلك المساوئ والشرور ... هو الأمل.

إن حالة العالم العربى الآن ، أيها السادة ، تشبه الحالة التى حدثت عند انفتاح علبة باندور ... لقد انتشرت المصائب والشرور فى العالم العربى ، ولم يبق بين أيدى أبنائه شيء غير (الأمل)

فيجب علينا ألا ننسى أن الأمل . . . هو من أثمن عوامل العمل ، فيجب علينا أن نحرص عليه كل الحرص ، فلا نترك سبيلاً إلى تسلل القنوط إلى القلوب . فليكن قلب كل واحد منا شبيهاً بعلبة باندور ، يحفظ الأمل

ولا يكتفى بحفظه فحسب . بل يسعى إلى تغذيته وتقويته ، إلى أن يتحول إلى إيمان لا يتزعزع ، يدفعنا إلى العمل المتواصل ... بروح التضحية والإخلاص .

بين مصر والعــــروبة

كتاب مفتوح إلى الدكتور طه حسين

أيها الأستاذ :

نشرت مجلة المكشوف البيروتية حديثاً جرى بينكم وبين جماعة من شبان العرب ، على ظهر باخرة تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ، قلتم في خلال ذلك الحديث إنكم تنادون « بتوحيد برامج التعليم في جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافي بينها » ، وترون « من المفيد أن يكون تعاوناً اقتصادياً ، وحتى تحالفاً عسكرياً » بين تلك الأقطار ، غير أنكم لا ترضون بوحدة سياسية ، سواء أكانت « بشكل أمبراطورية جامعة » أم على طراز « اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري » : وعللتم آراءكم هذه بقولكم : « إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين ، وإنها ستبقى كذلك ، بل يجب أن تبقى وتقوى ... »

أعترف بأنني قرأت هذه الآراء بدهشة غريبة ، لأنني استبعدت صدورها منكم كل الاستبعاد ؛ وقلت في نفسي : (لعل الكاتب نقلها على غير حقيقتها) ، وأعدت قراءتها بإمعان . ولكنني لمحت في عدة نقط منها أسلوب بيانكم المعروف ، فقلت : (لعل الدكتور أراد أن يمتحن هؤلاء الشبان ، ويتأكد من مبلغ إيمانهم بالقضية ، ويسبر غور درسهم لوجوهها المختلفة ؛ فالآراء التي أدلى بها إنما كانت من نوع الآراء الجدلية التي يقصد منها حمل المخاطب على التعمق في التفكير) . فوجدت نفسي ــ تجاه

هـذه الملاحظات ـ بين عاملين مختلفين ؛ عامل يدفعنى إلى الإسراع فى مناقشة هذه الآراء لـكيلا أترك مجالا لزعزعة إيمان بعض الشبان ، بتأثير سلطتكم الأدبية السامية ، وأسلوب بيانكم الأخاذ . وعامل يدفعنى إلى التريث فى الأمر ، لـكى أتأكد من صحة الحديث المعزو إليكم فتريثت لذلك مدة من الزمن . ولما لم أطلع على تصريح أو تصحيح صدر منكم ، رأيت من الواجب على أن أقدم على المناقشة ، بدون أن أنتظر مدة أطول .

فإذا كان فى الحديث الذى نسب إليكم شىء من البعد عن الواقع ، فأرجو أن تعتبروا كلمتى هذه بمثابة رد على الآراء المبسوطة فى ذلك الحديث ، بقطع النظر عن قائلها ؛ وإذا كان فيه شىء من قصد المناقشة الجدلية — كما أسلفت — فأرجو أن تعتبروا هـذه السطور بمثابة صفحة من صفحات تلك المناقشة الجدلية

— ١ —

قلتم للشـبان الذين تحدثتم إليهم : (إن المصرى مصرى قبل كل شىء ، فهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف)

فاسمحوا لى أن أسألكم : هل الوحـدة العربية تتطلب من المصريين التنازل عن المصرية ؟ أنا لا أتردد فى الإجابة على هذا السؤال بالنفى ، لأنى أعتقد بأن دعوة المصريين إلى الاتحاد مع سائر الأقطار العربية ، لا يتضمن ـ بوجه من الوجوه ـ حثهم على التنازل عن (المصرية) ؛ إن دعاة الوحدة العربية لم يطلبوا من المصريين ـ لا ضمناً

ولا صراحة ـ أن يتنازلوا عن مصريتهم ، بل إنهم يطلبون إليهم أن يضيفوا إلى شعورهم المصرى الخاص شعوراً عربياً عاماً ، وأن يعملوا للعروبة بجانب ما يعملونه للمصرية ؛ فهل لديكم ما يبرهن على أن ذلك من نوع (طلب المحال) ؟ وهل لديكم ما يدل على أن العروبة والمصرية ضدان لا يجتمعان ، وعنصران متعاكسان لا يمتزجان ؟

وقد قلتم لمخاطبيكم : (ولا تصدق ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة ، فالفرعونية متأصلة فى نفوسهم) . ثم أضفتم إلى ذلك حكما بتاراً ، فقلتم : (وستبقى كذلك ...)

فهل تسمحون لى أن أستوضحكم ما تقصدونه من كلمة (الفرعونية) ؟ هل تقصدون منها الأخذ بحضارة الفراعنة ؟ أم الاعتزاز بثقافة الفراعنة ؟ أم تقصدون منها بعث اللغة الفرعونية ، والآداب الفرعونية ، والديانة الفرعونية ، والسياسة الفرعونية ؟

أنا لا أستطيع أن أشك فى أنكم لم تقصدوا منها الحضارة أبداً ؛ لأنكم لستم ، بدون ريب ، ممن يقبلون لمصر ، ولغير مصر حضارة فى هذا العصر غير الحضارة العلمية الحالية ، كما أننى لا أستطيع أن أشك فى أنكم لم تقصدوا من هذه الكلمة (الديانة الفرعونية) أيضاً

هذا ومن جهة أخرى أجد فى مناداتكم (بتوحيد برامج التعليم فى جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافى بينها) دليلا قاطعاً على أنكم لم تقصدوا منها الثقافة الفرعونية أو اللغة الفرعونية أيضاً

فماذا تقصدون منها إذن ؟ السياسة ؟ فهل تقصدون أن (السياسة الفرعونية) تتطلب (الاكتفاء بحدود مصر الحالية) فترفض (التوسع)

بكل أنواعه حتى ولو كان عن طريق قبول انضمام الأقطار العربية ؟

إنكم أشرتم فى حديثكم إلى الآثار الباقية من عهد الفراعنة ، بشكل يستوقف الأنظار ، وأردتم أن تدعموا آراءكم بجلال تلك الآثار إذ قلتم :

(لا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها ، وإلا كان معنى طلبكم : اهدمى يا مصر أبا الهول والأهرام وتغاضى عن جميع الآثار التى تزين متاحفك ومتاحف العالم ، وانسى نفسك واتبعينا)

يظهر من هذه التأويلات أنكم تودون أن تخلقوا للفكرة العربية خصوما من الآثار القديمة ، وأن تضعوا فى سبيل تيار هذه الفكرة سدوداً من الرموس والأطلال . فهل فاتكم أن التعارض والتصادم لا يحدثان إلا بين الأشياء التى تسير على مستوى واحد ، فى عالم واحد ، وأن الفكرة العربية التى تعمل فى القرن العشرين — للأجيال القادمة — لا يمكن أن تتعارض مع آثار بقيت ميراثاً من ماض سحيق ، يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف من السنين ؟

إن مصر قد تباعدت عن ديانة الفراعنة ، دون أن تخرب أبا الهول ، وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تهدم الأهرام . وجميع آثار الفراعنة التى زينت بها متاحف مصر ومتاحف العالم ، لم تولد نزوعاً للعودة إلى الديانة التى أوجدت تلك المآثر الخالدة ، ولا حركة ترمى إلى بعث اللغة التى رافقتها خلال قرون طويلة . فهل من موجب لطلب هدم الأهرام وتناسى الآثار لأجل تحقيق الوحدة العربية ؟

إن الأهرام — مع جميع الآثار الفرعونية — لم تمنع مصر من

الاتحاد مع سائر الأقطار العربية اتحاداً تاماً فى ساحة اللغة ، فهل يمكن أن تحول دون اتحادها مع تلك الأقطار فى ساحة السياسة أيضاً ؟

كلا أيها الأستاذ . . . إن التيارات القوية والعميقة التى جرفت حياة مصر فى اتجاهات جديدة منذ عشرات القرون ، والتى أخرجتها من ديانتها القديمة وأنستها لغتها الأصلية — بالرغم من وجود الأهرام وقيام أبى الهول — سوف لا تحتاج إلى هدم أو ستر شىء من آثارها القديمة لتجرفها نحو السياسة التى يؤمن بها دعاة الوحدة العربية ... ولا سيما أن هذه السياسة ليست إلا نتيجة طبيعية للغة مصر الحالية

إن دعاة الوحدة العربية لم يقولوا ولن يقولوا لمصر (انسى نفسك) بل إنهم يقولون وسيقولون لها (استزيدى من ثروة نفسك) بالعمل على توحيد أبناء لغتك ... إنهم لم يقولوا ولن يقولوا لها (اتبعينا) ؛ بل يقولون وسيقولون لها (سيرى إلى الأمام ، ونحن نتبعك على الدوام ...)

— ٢ —

سألتم خلال الحديث : « تريدون أن تتحقق الوحدة العربية ؟ فعلى أى أساس علمى تنادون بها ؟ » ، ثم قلتم : « تعالوا معى نستعرض الروابط التى تصل مصر بالأقطار العربية الأخرى » ؛ فاسمحوا أن أشترك معكم فى الاستعراض لأناقشكم فى أهم المواقف التى وقفتموها خلاله

لقد وقفتم أولاً أمام قضية الأصل والدم ، وقلتم : (إن الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربى ، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء)

أنا لا أود فى هـذا المقام أن أطرق مسألة أصـل المصريين القدماء ولا أبحث عن علاقتهم أو عدم علاقتهم بالساميين عامة وبالعرب خاصة سأسلم جدلاً بما تقولونه فى هـذا الباب ، مع هذا أسألـكم بدورى : هل علمتم بوجود أمة على الأرض انحدرت من أصل واحد تماماً ؟ وهل تستطيعون أن تذكروا لى أمة واحـدة ترتبط بروابط الدم فعلاً وحقيقة ؟

إن جميع الأبحاث العلمية تدل على أنه لا يوجد على وجه البسيطة أمة خالصة الدم ، حتى الأمة الفرنسية التى سبقت جميع الأمم الأوربية فى طريق الوحدة والاستقرار ، لا تدعي بوحدة الأصل والدم . وعلماؤها يعترفون بأن الأجناس التى دخلت فى تركيبها تعد بالعشرات ؛ كما يعترفون مثلا أن جنوب فرانسة يختلف عن شمالها من حيث الأصل والدم اختلافاً كبيراً . . . أيمكنكم أن تدعوا مع هذه الحالة بأن عدم وحدة الأصل والدم ، يجب أن تحول دون انضمام مصر إلى حركة الوحدة العربية ؟

ثم وقفتم أمام مسألة التاريخ ، وادعيتم بأن (تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ أى بلد آخر)

فاسمحوا لى أن أقول بأن مسألة هذا الادعاء افتيات صارخ على الحقـائق الواقعة : إن تاريخ مصر اختلط اختلاطاً عميقاً وتشابك تشابكا كبيراً مع تاريخ سائر البلاد العربية خلال القرون الثلاثة عشر الأخيرة على الأقل ؛ فـكيف يحق لـكم أن تحذفوا هذه القرون من تاريخ مصر ؟ أنا لا أنـكر أن تاريخ مصر لم يبق متصلاً بتاريخ الأقطار العربية على الدوام ، غير أننى أدعى بأن ذلك شأن تواريخ الأمم الأخرى بدون

استثناء ، فإن تواريخ الأمم تشبه الأنهر الكبيرة التى تتكون من روافد متعددة بوجه عام

إن كل من يلقى نظرة عامة على تواريخ الأمم المعاصرة لنا كالأمة الفرنسية التى سبقت جميع الأمم فى طريق الوحدة القومية — كما ذكرت آنفاً — يضطر إلى التسليم بأن العلاقات التاريخية التى تربط مصر بسائر الأقطار العربية ، لهى أقوى وأعمق وأطول من العلاقات التاريخية التى تربط الأيالات الفرنسية بعضها ببعض

وإذا أظهرتم شيئاً من الريب فى هذا الباب ، فإننى مستعد لذكر التفاصيل والأسانيد التى تبرهن على صحة مدعاى برهنة قطعية

— ٣ —

والآن اسمحوا لى أن أنتقل معكم إلى آخر المواقف التى وقفتموها خلال استعراض الصلات : لقد أنكرتم « تأثير اللغة » فى تكوين « الوحدة العربية » ، وقلتم : (لا تنخدعوا ، لو كان للغة وزن فى تقرير مصير الأمم ، لما كانت بلجيكا وسويسرا ، ولا أمريكا ولا البرازيل ولا البرتغال . . .)

فاسمحوا لى أن أناقشكم فى هذا الموضوع المهم مناقشة طويلة :

لو كنتم أيها الأستاذ من الكتاب الذين كتبوا قبل الحرب العالمية ، فأقدمتم على كتابة بحث مثل هذا البحث للبرهنة على نظرية مثل هذه النظرية ، — قبل ربع قرن — لاستطعتم أن تضيفوا إلى هذه

الأمثلة مثالين آخرين ؛ ولقلتم عندئذ : لا تنخدعوا ، لو كان للغة وزن في تقرير مصير الأمم ، لما كانت الأمبراطورية النمسوية ، ولا السلطنة العثمانية ...

ولو كنتم ممن عاشوا قبل ذلك بنصف قرن أيضاً لاستطعتم أن تضيفوا إلى أمثلتكم عشرات الأمثلة الأخرى ، ولأرخيتم العنان إلى قلمكم الجوّاب لينتقل من جنوب إيطاليا إلى شمال ألمانيا ، ولقلتم : « لو كان للغة وزن في تقرير مصير الأمم لما كانت ساردونيا وساكسونيا ، ولا بيه ده مونته و باديرا ... »

غير أن تقلبات الزمان أزالت من عالم الوجود جميع تلك الأمثلة والشواهد الكثيرة ، وحرمت النظرية التي تقولون بها من إمكان الاستناد إليها ، فحصرت الأمثلة في الأسماء التي ذكرتموها . أفلا ترون أيها الأستاذ بأن هذه الملاحظة وحدها كافية للبرهنة على أن مثل هذه البراهين لا تخلو من مزالق كثيرة ؛ فلا يجوز الاعتماد عليها في حل القضايا الاجتماعية

أفتلومونني إذا قلت إن هذه المحاكمة لا تخلو من الشبه بمحاكمة من يقول : (لو كان لجاذبية الأرض وزن في تقرير مواضع الأجسام ، لما بقيت القناديل معلقة بالسقوف ، ولما صعدت الأدخنة إلى السماء ، ولما طارت الطيور وارتفعت المناطيد والطيارات)

اسمحوا لي أن أستعرض الظروف الخاصة التي تلازم كل واحد من الأمثلة التي ذكرتموها ، لكي أبرهن على صدق تشبيهي هذا :

إن أول الأمثلة التي ذكرتموها للتدليل على عدم وزن اللغة في تقرير مصير الأمم هو وجود بلجيكا . وهل فاتكم أن بلجيكا ليست متجانسة

من حيث اللغة ، بل هى من المناطق التى تتلاقى وتتشابك فيها اللغات ؟ ولا شك فى أنكم تعلمون أن النصف من سكانها يتكلم الفرنسية على حين أن النصف الآخر منها يتكلم الفلامندية . فاتحاد كل فريق من هؤلاء مع سائر أبناء لغتهم يتوقف على تجزئة وتقسيم بلجيكا ، على حين أن ذلك يصطدم بمشاكل عظيمة وموانع جسيمة من الوجهة الجغرافية والاقتصادية والسياسية

أولاً : إن حدود الألسن فى بلجيكا لا تخلو من تشابك وتعقيد ؛ فعاصمتها بروكسل — مثلاً — تقع فى منطقة فلامندية ، مع أنها من أهم المراكز الفرنسية : يتكلم سكانها باللغة الفرنسية على حين أن سكان القرى والقصبات المحيطة بها يتكلمون الفلامندية . ولا شك فى أن هذا التشابك يجعل أمر تجزئة هذه المملكة من المشاكل العويصة من الوجهة المادية والجغرافية

ثانياً : إن حدود المناطق اللغوية فى بلجيكا لا تتفق مع حدود المناطق الاقتصادية ، مما يجعل أمر التقسيم عسيراً جداً من الوجهة الاقتصادية أيضاً

ثالثاً : تشغل بلجيكا موقعاً هاماً بين ثلاث من أعظم الدول الأوربية وهى ألمانيا وفرنسا وانكلترا . ولا حاجة للإيضاح أن (تعارض منافع هذه الدول المعظمة الثلاث) جعل أمر إبقاء المملكة البلجيكية على حالتها وعلى حيادها من لوازم التوازن الدولى العام ومن مستلزمات السياسة العالمية الهامة ، فكيف يجوز لكم أن تعتبروا وجود بلجيكا دليلاً على عدم وزن اللغة فى تقرير مصير الأمم ؟ أفلم أكن محقاً عندما قلت :

إن ذلك يشبه اعتبار توازن بعض الأجسام دليلاً على عدم تأثير الجاذبية الأرضية ؟

هذا ومن جهة أخرى ، أود أن أسألكم : هل من وجه لتشبيه قضية بلجيكا والأمم المجاورة لها بقضية مصر والبلاد العربية المتصلة بها ؟ وهل من مجال لاعتبار مصر والأقطار العربية المتصلة بها من مناطق تشابك اللغات وتعقدها ؟ وهل يتوقف اتحاد مصر مع سائر الأقطار العربية على تجزئتها أو تجزئة غيرها ؟

ترون أيها الأستاذ ، أن مثال بلجيكا ، لا يؤيد مدعاكم بوجه من الوجوه

أما قيمة المثال الثانى الذى ذكرتموه فلا تختلف عن ذلك كثيراً ، فإن سويسرا أيضاً من مناطق تلاقى وتشابك اللغات : تتلاقى فيها اللغات الفرنسية والألمانية والايطالية ، كما تتلاقى أهم سلاسل الجبال الأوربية ؛ فلا يجوز اتخاذها دليلا على عدم وزن اللغة فى تقرير مصير الأمم بوجه من الوجوه

وأما المثال الثالث الذى ذكرتموه فهو أيضاً لا يؤيد مدعاكم فى هذا الباب . أنا لا أرى لزوماً — فى هذا المقام — إلى شرح خصائص أمريكا ولا إلى البحث عن قضية العناصر فيها . بل سأكتفى بالإشارة إلى عظمة المحيط الأطلنتيكى الذى يفصلها عن القارة الأوربية . وأعتقد أن هذه الإشارة وحدها تكفى للبرهنة على أن قضيتها لا تشبه قضية البلاد العربية بوجه من الوجوه . فإن الأقطار العربية متصلة بعضها ببعض اتصالا جغرافياً تاماً ، والقطر المصرى يشغل بين هذه الأقطار

مركزاً هاماً ، وأما الحدود التي تفصله عن سائر الأقطار العربية ، فتنحصر في بعض الجهات بخطوط وهمية ، تمتد فوق رمال الصحراء ، فهل تعتقدون بأن هذه الخطوط الوهمية التى تفصل مصر عن سائر الأقطار العربية بصورة اعتبارية واصطناعية ، تستطيع أن تعمل عملاً مماثلاً لعمل البحر المحيط الذى يفصل أمريكا من أوربا بصورة حقيقية وطبيعية ؟

— ٤ —

بعد أن شرحتم ، أيها الأستاذ وجهة نظركم فى الوحدة العربية ، رأيتم أن تقدموا نصيحة إلى محدثيكم الشبان فقلتم :

(إن كان لى نصيحة أسديها إليكم يا إخوانى ، فهى أن تتمسكوا بالواقع العلمى وتهملوا سواه ، مهما كانت قوته العاطفية والخيالية ، افهموا أن المنفعة تسير الشعوب ؛ فإن لم تفهموا هذا اليوم ، فسترغمون على فهمه غداً)

أنا أضم صوتى إلى صوتكم فى هذه النصيحة ، من حيث الأساس ، غير أننى أنكر عليكم النتائج التى وددتم أن تتوصلوا إليها تحت حماية هذه النصيحة

تقولون إن المنفعة تسيِّر الشعوب ؟ فهل تقصدون أن « اتحاد الأقطار العربية » مخالف لمنفعة الشعوب ، أو خال منها ؟ وَهل تدعون أن منافع كل واحد من الأقطار العربية ستحول دون اتحادها ؟

أما أنا فأعتقد عكس ذلك تماماً ـ أعتقد أن فكرة الوحدة العربية لا تستند إلى العاطفة وحدها ، بل تستند إلى المنفعة أيضاً . أعتقد أن منفعة مصر نفسها تتطلب منها الاتحاد مع سائر البلاد العربية

كما أعتقد بأن منفعة مصر فى هذه القضية ليست من المنافع البسيطية الطفيفة ، بل هى من المنافع الهامة الحيوية . وإذا كان الذين يقدرون أهمية هـذه المنافع لا يزالون قليلين اليوم ، فلا شك فى أنهم سيكثرون يوماً من الأيام

وعلى كل حال أنا من الذين يؤمنون بالوحدة العربية ويدعون إليها ، ليس بتأثير العواطف فحسب ، بل بملاحظة المنافع أيضاً ، ولهـذا السبب عندما قرأت قولكم فى (أن المنفعة تسير الشعوب) قلت فى نفسى : (وهـذه المنفعة هى التى تسير المصريين نحو الوحدة العربية عاجلاً أم آجلا)

هـذا ، وأرى ألا أختم اعتراضاتى هذه دون أن أتوجه إليكم بكلمة شكر : فإنى أشكركم من صميم فؤادى على مناداتكم بتوحيد الثقافة بين البلاد العربية ؛ لأننى أعتقد بأن توحيد الثقافة من أهم العوامل التى تهيئ سائر أنواع التوحيد . فأقول بلا تردد : اضمنوا لى وحدة الثقافة ، وأنا أضمن لكم كل ما بقى من ضروب الوحدة



حول الوحدة العربية

إلى الدكتور طه حسين

[نشرت فى مجلة الرسالة ١٩٣٩]

أيها الأستاذ :

لقد مضى نحو ستة أشهر على نشر الانتقادات التى وجهتها إليكم — فى مجلة «الرسالة» — بمناسبة حديثكم المنشور فى مجلة «المكشوف» البيروتية ، حول « الوحدة العربية وموقف مصر منها » ، وعلى نشر « الفصل الجوابى » الذى أرسلتموه إلى (الرسالة) رداً على تلك الانتقادات[1]

لم أكتب إليكم شيئاً حول هذه القضية خلال هذه المدة لأسباب ستظهر لكم من الأسطر التالية ، ومع هذا أشعر الآن بدافع قوى يدفعنى إلى مخاطبتكم فى هذه المسألة ، بالرغم من مرور هذه الأشهر الطويلة ، لمواصلة البحث والمناقشة فيها

***

كنت غادرت بغداد إلى المغرب الأقصى قبل وصول عدد (الرسالة) الذى نشر فيه ردكم ، فلم أطلع عليه إلا فى بيروت قبل سفرى منها بالطيارة . قرأت الرد هناك فوقعت فى حيرة عميقة لأننى انتهيت من قراءته دون أن أجد فيه كلمة واحدة يصح أن تعتبر رداً على ملاحظاتى الاعتراضية ، أو جواباً على أسئلتى الانتقادية ، لأن الآراء المسرودة فى الفصل كانت تحوم

(١) الرسالة عدد ٢٨٥و٢٨٦ — ١٩و٢٦ديسمبر ١٩٣٨

حول قضية (وحدة الثقافة) و (واجب مصر فى أمر هذه الوحدة) على حين أن هذه القضية لم تكن فى القضايا التى اختلفت معكم فيها ، بل كانت فى القضايا التى شكرتكم عليها !

فإننى ختمت مقالى الانتقادية بالعبارات التالية :

« هذا وأرى ألا أختم اعتراضاتى ، دون أن أتوجه إليكم بكلمة شكر ؛ فإنى أشكركم من صميم فؤادى على مناداتكم بتوحيد الثقافة بين البلاد العربية ، لأننى أعتقد أن توحيد الثقافة من أهم العوامل التى تهيىء سائر أنواع التوحيد . فأقول بلا تردد : اضمنوا لى وحدة الثقافة ، وأنا أضمن لكم كل ما بقى من ضروب الوحدة)

فكان من الطبيعي أن أقع فى دهشة عميقة من قراءة الفصل الذى نشرتموه فى الرسالة تحت عنوان (الرد)

وأخذت أفكر — وأنا أقطع الفضاء فوق أجواء البحر الأبيض المتوسط — فى تعليل الخطة التى انتهجتموها فى هذا الباب : (كيف سوغ الدكتور طه حسين لنفسه أن يسمى هذا الفصل ردا)

قلت فى بادىء الأمر : يظهر أن الأستاذ قد شعر بالخطأ الذى وقع فيه فلم يجد مجالاً للرد على الانتقادات التى وجهت إليه ، ولم يرد مع هذا أن يعترف بذلك ، فأراد أن يتظاهر بالرد بنشر فصل لا علاقة له بموضوع الانتقاد والاعتراض

غير أننى لم أرتح لهذ التفسير والتعليل ، لأننى استبعدت منكم أن تسلكوا مثل هذا المسلك فى مناقشة قضية هامة مثل قضية الوحدة العربية . فواصلت التفكير فى الأمر إلى أن خطر على بالى تعليل آخر أقرب إلى

العقل من التعليل الأول . يقول الدكتور طه حسين : إن الرد هو فصل من كتاب تحت الطبع ؛ أفليس من الممكن أن يكون قد حدث سهو فى نقل الفصل من الكتاب ؟ قد يكون فى الكتاب فصل يتضمن الرد ؛ غير أن الدكتور قد سها فى رقم الفصل ؛ فالمطبعة أرسلت إلى (الرسالة) فصلاً آخر غير المقصود .

عند ما لمحت هذا الاحتمال ، ركنت إليه كل الركون ، وقلت فى نفسى قد ينشر الدكتور فى العدد التالى من الرسالة تصحيحاً لما حدث ؛ غير أن أسفارى السريعة سوف لا تترك لى مجالاً للاطلاع على ذلك قبل عودتى إلى بغداد ، فلا بد لى من الانتظار إلى ذلك الحين للوقوف على التصحيح أو لقراءة الكتاب .

ولهذا السبب ، عند ما عدت إلى بغداد بعد إتمام رحلتى فى المغرب الأقصى ، والجزائر وتونس وصقلية — أسرعت إلى تصفح أعداد الرسالة التى صدرت فى غيابى ؛ ولما لم أجد فيها شيئاً يتعلق بالموضوع الذى نحن بصدده ، ظلبت نسخة من كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) ؛ وأخذت أقرأ بانتباه شديد باحثاً فيه عن (الرد) ... غير أننى وقعت فى دهشة أشد من دهشتى الأولى عند ما انتهيت من قراءة فصول الكتاب بأجمعها ، دون أن أصادف فيها أيضاً ما يصح أن يعتبر جواباً على أحد أسئلتى الانتقادية . فقلت فى نفسى : لم يبق مجال لتعليل الأمر بغير الملاحظة التى كانت وردت على ذهنى عقب مطالعة الرد المنشور فى مجلة الرسالة

مع هذا لم أشأ أن أكتب شيئاً حول هذا الموضوع ، للملاحظتين التاليتين : أولاً ، كان قد مضى على نشر ردكم مدة تناهز ثلاثة أشهر

ثانياً ، (تباعد الرد عن موضـوع البحث والمناقشـة) كان من الأمور الجلية التى لا تحتاج إلى التوضيح والتنبيه ؛ كما ظهر لى ذلك من أقوال الشبان الذين حادثتهم خلال رحلتى فى باريس ، وتونس ، وسورية .

فقلت فى نفسى : لا داعى لـكتابة شىء فى هذا الموضوع بعد انقضاء هذه المدة ، ما دام رد الدكتور طه حسين لم يكن من النوع الذى يستطيع أن يخدع أحداً من القراء الأذكياء

ولذلك لم أعد إلى هذا البحث منذ ذلك الحين

* * *

غير أنني اطلعت أخيراً على مقالـكم المنشور فى العدد الممتاز من مجلة الهلال ، عن (العقل العربى الحديث) ، ورأيت أنـكم عرضتم فى ذلك المقال لمسألة « الوحدة العربية » بطرق ملتوية : بعد أن سردتم بعض الآراء حول « تطور العقل البشرى » بوجه عام ، وتطور « العقل الأدبى الحديث » بوجه خاص بحثتم عن وجوب « تجديد العقل العربى » وذكرتم ما تعتقدونه فى وسائل هـذا التجديد . ثم انتقلتم إلى مسألة « الوحدة العربية » بطريقة « ظريفة » إذ قلتم ما يلى :

« وربما كان من الأمثلة الظريفة الطريفة التى تبين الفرق بين العقل العربى القديم ، والعقل العربى الحديث فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، مسألة الوحدة العربية أو الوحدة الإسلامية التى يكثر فيها الـكلام وتشتد فيها الخصومة ؛ فما أظن أن الناس يختلفون فى أن هذه الوحدة نافعة للشعوب العربية وللشعوب الإسلامية أشد النفع ، وفى أن مصالحهم تدعوهم

إليها وتدفعهم إليها دفعاً ، ولكنهم مع ذلك يختلفون و يختصمون لا لشيء إلا لأنهم يختلفون في تصور هذه الوحدة حسب ما يتاح لهم من العقل القديم أو العقل الحديث ؛ فأما أصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما فهمها القدماء فى ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه و يحوطها بقوته و بأسه ، وليسمَّ هذا السلطان خلافة ، وليسمَّ ملكا كما كان يسمى قديماً ، و يجوز أن يسمى إمبراطورية ليكون له حظ من الطرافة ، فقد عرف القدماء الإمبراطوريات واحتفظ بها المحدثون من الأوربيين . وكذلك يخدع العقل القديم نفسه فيظن أنه أصبح حديثاً ، وأما أصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه فى البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الأوربية . يفهمونها على أنها لا تنفع ولا تفيد إلا إذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية ، والحريات الكاملة لأعضائها ، والسيادة العامة لهم فى حياتهم الداخلية والخارجية ، وقامت على الحلف الذى لا يفنى أمة فى أمة ولا يخضع شعباً لشعب ، وإنما يمكن الأمم من أن تتعاون على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة . فإذا قال صاحب العقل الحديث مقالته هذه ضاق به صاحب العقل القديم أشد الضيق ، لأن عقله لم يتطور بعد ، ولم يستطع أن يكون من أهل العصر الذى يعيش فيه ، وإنما هو محتفظ بكل مشخصات القرون الوسطى ، وهيهات لمشخصات القرون الوسطى أن تسيغ ما يقع فى القرن العشرين ... »

يظهر لى من كلماتكم هذه أنكم بعد أن تهربتم من مناقشة مسألة الوحدة العربية مناقشة مباشرة — حين دُعيتم إليها — أردتم أن تعودوا إليها عن طريق التعريض والتلويح ، كما أردتم أن تستهووا أذهان

قرائـكم عن طريق اتهام معارضيكم بالتمسك بـ « مشخصات القرون الوسطى » ، وإلباس رأيكم حلة قشيبة من « مقتضيات العقل العربى الحديث »

فاسمحوا لى إذن أن أتبعكم فى هذه الطرق الملتوية ، وأن أزن ملاحظاتـكم بميزان « العقل العربى الحديث » الذى تشيرون إليه

لا أدرى إذا كان الانصراف عن مناقشة المسائل مناقشة مباشرة ، والاتجاء إلى طرق « التعريض والتشويش » فى أمرها مما يفيد — فى عرفكم — فى مقتضيات العقل الحديث . غير أننى أعتقد أنـكم تسلمون معى — على كل حال — بأن العقل العربى الحديث يجب أن يكون على غرار العقل الأوربى الحديث ، ولا تنكرون ـ بالطبع ـ أن « العقل الأوربى الحديث » يتطلب السير على مناحى الأبحاث العلمية ، على أساس استنطاق الوقائع والحادثات واستقرائها متجرداً عن تأثيرات الميول النفسانية والآراء القبلانية ..

فلننعم النظر فى الملاحظات التى نقلتها آنفاً من مقالـكم لنر مبلغ ملاءمتها لمقتضيات « العقل العربى الحديث » الذى تدعون إليه :

أولاً ، إنـكم تبحثون فى كلامكم هذا عن الوحدة العربية والوحدة الإسلامية كأنهما مسألة واحدة ، على حين أن إحداهما تختلف عن الأخرى اختلافاً كلياً . فإن فكرة « الوحدة العربية » ترمى إلى توحيد الشعوب التى تتكلم بلغة واحدة ، على حين أن فكرة «الوحدة الإسلامية» ترمى إلى توحيد الأمم التى تتكلم بلغات مختلفة ، بالرغم من تدينها بدين واحد ؛ فالبون بينهما شاسع جداً ، فإن الدعوة إلى « الوحدة العربية » لا تتضمن

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية الشاملة ؛ كما أن عدم الإيمان بإمكان تحقيق « الوحدة الإسلامية » لا يستلزم إنكار إمكان تحقيق « الوحدة العربية » . ولذلك أقول بلا تردد إن خلط هاتين المسألتين ، والنظر إليهما بنظرة واحدة ، يخالف أبسط حقائق علم الاجتماع ، وأبرز وقائع تاريخ السياسة ، ولا يتفق مع الحقائق الراهنة بوجه من الوجوه

ومن الغريب أنكم لا تكتفون بالخلط بين هاتين المسألتين ، بل تحشرون بينهما مسألة الخلافة أيضاً بصورة غريبة ، وتنظرون إلى هذه المسائل كلها بنظرة واحدة . لقد تعودنا أن نرى آثار مثل هذا الخلط ، فى كتابات بعض الساسة من الأوربيين المستعمرين ، لأنهم ينظرون ـ عادة ـ إلى هذه المسائل كلها من وجهة نظر أطماعهم الاستعمارية ، ويسعون إلى وصم جميع الحركات القومية والوطنية بوصمة « التعصب الدينى » ليثيروا الرأى العام الأوربى عليها ... غير أننا ما كنا ننتظر منكم أن تقتفوا أثر هؤلاء الساسة من حيث لا تشعرون ، وأن تخلطوا بين هذه المسائل بهذا الشكلَ الغريب

فأرى من واجبى أن أصرح لكم فى هذا المقام ، بأننى مع عدد كبير من المفكرين القوميين الذين أعرفهم وأتصل بهم على الدوام أنظر إلى قضية « الوحدة العربية » كقضية مستقلة عن قضايا « الوحدة الإسلامية » و « الخلافة الإسلامية » كل الاستقلال . وأؤكد لكم أننى ـ بقدر ما أومن بفكرة العروبة ، وبقدر ما أعتقد إمكان الوحدة العربية ، وبقدر ما أقول بوجوب السعى وراء تحقيقها ـ أعتقد باستحالة « الوحدة الإسلامية » ؛ وأقول إن « إثارة فكرة الخلافة » مضرة

بـ « قضية الوحدة العربية » و « فـكرة التضامن الإسلامى » فى وقت واحد

***

هذا ومن جهة أخرى ألاحظ أنكم تسلمون ـ فى مقالـكم هذا ـ بأن « الوحدة » نافعة « للشعوب العربية والاسلامية » أشـد النفع ؛ وتقولون بأن الناس لا يختلفون فى منافع هذه الوحدة ، إنما يختلفون فى « تصورها حسب ما يتاح لهم من العقل القديم والعقل الحديث » ... كما تصفون لنا نوعى هذا التصور وصفاً بارعاً : بالنوع الذى يقول به صاحب العقل القديم ، وهو الذى يتصور الوحدة تحت ظل سلطان شامل ؛ والنوع الذى يقول به صاحب العقل الحديث ، وهو الذى يتصور الوحدة على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة ...

أنا لا أود أن أبحث عن مبلغ مطابقة وصفـكم هذا للحقائق الراهنة ؛ غير أنى أرى من الضرورى أن أقول لـكم فى هذا المقام إننى قد اطلعت ـ قبل مدة ـ على رأى فى الوحدة العربية يختلف عن هذين الرأيين فى وقت واحد : فإن صاحب ذلك الرأى ، كان لا يقبل الوحدة ، ولو كانت على أساس المساواة ، ولا يرضى بالوحدة ، ولو كانت على نمط اتحاد يشابه الاتحاد الأمريكى أو السويسرى ... فهل تسمحون لى أن أسألـكم : أتعتبرون موقع هـذا الرأى فى العقل القديم أم العقل الحديث ؟

لا أشك فى أنـكم لن تطلبوا منى أن أذكر لـكم اسم صاحب

هذا الرأى ؛ غير أنى أظنكم سوف تعذروننى إذا ذكرت ذلك تنويراً للقراء :

إن صاحب هذا الرأى ـ الذى يخالف مقال صاحب العقل القديم ومقال صاحب العقل الحديث فى وقت واحد ـ هو صاحب « الحديث » المنشور فى مجلة « المكشوف » ! ... ذلك الحديث الذى كان مبدأ ومنشأ لجميع هذه المناقشات !

فقد قرأت فى ذلك الحديث ، العبارة التالية ، بحروفها :

« مصر لن تدخل فى وحدة عربية ، حتى ولا اتحاد عربى ، سواء أكانت مساوية فيه للأمم العربية الأخرى أو مسيطرة عليها ... » (المكشوف — العدد : ١٧٥ — الدكتور طه حسين يتحدث عن العروبة ... »

كما قرأت فى مكان آخر من ذلك الحديث العبارة التالية ، بنصها :

« الوحدة العربية ، كما يفهمها ذووها يجب أن تتحقق بشكل إمبراطورية جامعة أو اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكى أو السويسرى » (المكشوف — العدد : ١٧٥ — الدكتور طه حسين يتحدث عن العروبة ...)

ترون من كل ذلك أيها الأستاذ أن مسألة الوحدة العربية ليست من القضايا التى يمكن أن تناقش وتعالج بالصناعة الكلامية والاندفاعات الارتجالية :.. كما ترون أن الخطة التى سلكتموها فى معالجة

هذه القضية تجركم دائماً إلى مواقف تخالفون فيها الحقائق الراهنة مخالفة صريحة ، كما جرّتكم فى بعض الأحيان إلى مواقف تناقضون فيها أحاديثكم الذاتية أيضاً ...

إنكم تدعون المفكرين إلى بذل الجهود فى سبيل « تجديد العقل العربى » ... وكم كنت أود أن أراكم تعملون بهذه الدعوة فى المناقشات التى تخوضون فيها ، ولا سيما إذا كان موضوع المناقشة من الموضوعات الهامة مثل « فكرة العروبة » و « الوحدة العربية » ...



دور مصر
في النهضة القومية العربية

[نشرت فى جريدة البلاد ببغداد
فى ١٩ نيسان سنة ١٩٣٦]

لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى إنهاض القومية العربية

لأنها تقع فى مركز البلاد العربية ، بين القسمين الأفريقى والآسيوى منها ؛ كما أنها تكوِّن أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى بحكم السياسة والظروف . وهذه الكتلة قد أخذت حظاً أوفر من غيرها من الحضارة العالمية الحديثة ؛ وأصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة فى البلاد العربية ، وهى أغنى هذه البلاد بأجمعها ، كما أنها أقدمها فى تشكيلات الدولة العصرية وأقواها فى الآداب وأرقاها فى الفصاحة ...

وكل ذلك ، من الموقع الجغرافى إلى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة وتشكيلات الدولة وانتشار الأدب والفصاحة ، مما يجعل مصر « الزعيمة الطبيعية » للقومية العربية . ولهذا السبب نجد أن جميع الذين حملوا الإيمان القومى فى نفوسهم ، وعملوا فى سبيل إنماء روح القومية فى جميع البلاد العربية ، وجهوا وجوههم شطر مصر ، وانتظروا منها الحركات والأعمال التى تضمن النصر فى هذا السبيل ...

غير أنهم منوا بالخيبة فى آمالهم وأمانيهم هذه فى بادئ الأمر : لأنهم شاهدوا أن مصر ظلت معرضة عن الفكرة العربية ، محايدة نحوها . وهذه الحالة أدت إلى قنوط البعض من انضمام مصر إلى الفكرة العربية

غير أن البعض الآخر لم يصبحوا من القانطين . بل ظلوا مؤمنين بأن مصر ستترك هذا الوضع — عاجلاً أم آجلاً — وستشترك فى الحركة العربية ، وتزيدها قوة ونشاطاً

إن آثار التطور الذى حدث فى مصر فى السنين الأخيرة أيد نظرية هؤلاء وقوى إيمانهم فى هذا الباب

لقد كان لإعراض مصر عن الفكرة العربية أسباب ودواعٍ طبيعية غير أن هذه الأسباب كان محكوماً عليها بالزوال بطبيعة الحال :

إن المعنى الذى أحاط بكلمة « عرب » بين الناس لا سيما فى مصر كان من أول العوامل التى أدت إلى تباعدهم عن الفكرة العربية ، لأن الناس صاروا يستعملون هذه الكلمة للدلالة على البدوى غير المتحضر ؛ فأخذوا يعتبرونها مقترنة بالتأخر والهمجية ، وذلك استوجب تنصل المتحضرين من العروبة وابتعادهم منها . غير أن انتشار الثقافة وتعميم دراسة التاريخ كان كفيلاً بإزالة هذه الفكرة الخاطئة ، وإرجاع كلمة « العرب » و « العروبة » إلى معانيها الحقيقية القومية

وكذلك كان تعظيم مصر لمقام الخلافة وارتباطها بها ، وزعمها بأنها ستنال الخلاص والاستقلال على يدها . . . من جملة الأسباب

التى حملتها على الإعراض عن الحركة العربية فى بدء ظهورها . غير أن سير الوقائع الطبيعى فى هذه القضية أيضاً جاء كفيلاً بإزالة هذا العامل المهم من طريق النهضة القومية العربية : فإن استنكار الخلافة من قبل أصحابها ، وطرد الخليفة من قبل بنى جنسه أنفسهم ، وإلغاء الخلافة من قبلهم أيضاً بعد مدة وجيزة ، لم يترك سبباً مبرراً للحنق على الثورة العربية لقيامها مقام الخلافة . وكل ذلك اضطر المصريين إلى العودة إلى أنفسهم ، والبحث عن روابط أقوى من التى كانوا اعتمدوا عليها

إن هذه العودة — وهذا البحث — انضما إلى حركة التعارف الجديدة ، وأفسحا مجالاً لتولد الشعور العربى ، وانتشاره بين المصريين

لا نكران فى أن بعض مفكرى مصر لم يصلوا بعد إلى مرحلة رابطة « القومية العربية » ؛ بل توقفوا عند نوع من الرابطة ، تؤلف جسر انتقال من مرحلة « الرابطة الاسلامية العامة » إلى مرحلة « الرابطة العربية القومية »

هذه الرابطة سموها باسم « الرابطة الشرقية » — غير أننا لا نشك فى أن فكرة هذه الرابطة — عند ما تتجرد من عناصرها اللفظية ، وتصطدم بالحقائق العملية وتنصهر بالتعارف الحقيقى ، ستتحول بالتدريج إلى رابطة عربية بحت

إننى كنت من المؤمنين بكل ذلك من زمن طويل ، ولم أقنط

من انتشار فكرة القومية فى مصر فى يوم من الأيام . غير أنه يسرنى جداً أن أرى هذه السنة فى مصر ، اختماراً اجتماعياً عميقاً ، يدفعها نحو الفكرة العربية بقوة شديدة ، ويجعلها تشعر بواجبها الطبيعى ، ورسالتها القومية شعوراً واضحاً ، ولا أشك فى أن هذه ليست إلا مقدمة مباركة ، سيعقبها شعور فياض نحو القومية العربية ، وعمل جبار فى سبيل إنهاض هذه القومية ...

ألعلم للعلم ، أم العلم للوطن ؟

وسيلة دراسة التاريخ

إننى لا أعترض على من يدعى أن « العلم للعلم » وأسلم بأن « الأبحاث العلمية » يجب أن يكون هدفها « معرفة الحقيقة » معرفة مجردة عن كل الاعتبارات النفعية ...

غير أننى أقول — فى الوقت نفسه — بأن العلم شىء والتعليم شىء آخر ؛ فما يصح فى « العلم » قد لا يصح فى « التعليم »

فعند ما نقول « العلم للعلم » لا يتحتم علينا — منطقياً — أن نقول فى الوقت نفسه « التعليم للتعليم » ؛ وعند ما نسلم بأن « العلم لذاته ، لا لشىء غيره » لا يترتب علينا أن نسلم فى الوقت نفسه بأن « التعليم أيضاً لذاته ، لا لشىء غيره » ...

فإن مبدأ « العلم للعلم » لا يمنعنا من القول بأن (التعليم ليس من الأمور المقصودة بالذات ، بل هو من الوسائل التى تستخدم للوصول إلى بعض الغايات)

إن هذه الغايات لا تكون « مادية ونفعية » فى كل الأحيان ؛ بل تكون (معنوية وتربيوية) فى معظم الأحوال ؛ فقد يقصد من التعليم (إعطاء بعض المعلومات للحياة فى بعض الأحوال ، غير أنه يقصد منه — فى معظم الأحوال — (الحصول على بعض الفوائد المعنوية والتأثيرات التربيوية) كالتعويد على البحث والملاحظة والترغيب فى الدرس

والمطالعة أو تمية الميول الفنية ، واستثارة العواطف النفسية . وأما التعليم الذى يتجرد عن مثل هذه الأهداف والغايات فيكون مخالفاً لأسس التربية الصحيحة مخالفة كلية

ويمكننا أن نقول : (إن قيمة التعليم) تقاس بقيمة الغايات التى يرمي إليها من جهة و بجودة الطرق التى تتبع فى خلاله من جهة أخرى ولا نغالى إذا قلنا : إن (دور الغايات) فى هذا الشأن يكون أهم من (دور الطرق) بوجه عام ، لأن (الطريقة تتبع الغاية وتخضع لمقتضياتها) بطبيعة الحال

هذا ومما تجب ملاحظته فى هـذا الباب ، أن تعليم أى علم من العلوم لا يمكن أن يشمل ويستوعب جميع الحقائق المكتشفة والمقررة فى ذلك العلم ... حتى فى الدراسات العاليـة ... فـكل تعليم يضطر — بطبيعة الحال — إلى انتخاب بعض الحقائق ، والاهتمام بها أكثر من غيرها ، فنستطيع أن نقول لذلك بوجه عام : إن التعليم يتضمن شيئاً من الانتخاب ؛ فجودة التعليم تتوقف على حسن الانتخاب . ولا جدال فى أن حسن الانتخاب لا يتيسر إلا بموازنة الفوائد التى يمكن الحصول عليها من تعليم كل بحث من الأبحاث من جميع الوجوه العلمية والتربيوية . ولا شك في أن هذه (الموازنة) توسع مجال عمل (الغايات فى التعليم) توسيعاً كبيراً

وأما نوع التربية الذى ينتخب والتأثير الذى يتوخى من تعليم كل علم من العلوم ، فيختلف باختلاف العلوم من جهة ، و باختلاف درجات التعليم من جهة أخرى . فالفوائد العملية والأهداف التربيوية التى تقصد

فى تعليم الرياضيات مثلاً ، تختلف عما يتوخى من تعليم الطبيعيات والاجتماعيات . كما أن الغايات التى تستهدف فى تعليم هذه العلوم فى المدارس الثانوية والعالية . ونستطيع أن نقول بوجه عام : إن دَور الغايات التربيوية فى التعليم يتقلص ويتضاءل كلما ارتفعت درجة التعليم . مع هذا فإن التعليم العالى نفسه لا يتجرد عن الغايات التربيوية تماماً ؛ فإن هـذا التعليم أيضاً لا يكتفى بسرد الحقائق وحدها ، بل يستهدف فى الوقت نفسه تعويد الطلاب على « التعلم من تلقاء أنفسهم » بمراجعة المصادر وجميع الوثائق وملاحظة الوقائع واستقراء الحوادث .. حسب ما تقتضيه طرائق البحث العلمى والدرس الذاتى

وأما التعليم العالى الذى لم يقم بهذه المهمة خير قيام ، فيكون مقصراً فى واجباته الأساسية ، مهما توسع فى سرد الحقائق وتوغل فى شرح الأبحاث ...

فلا نغالى إذا قلنا : إن التعليم لا يصبح مقصوداً بالذات إلا فى الدراسات العالية الاختصاصية وحدها

— ٢ —

إن ما قررناه آنفاً فى شأن « العلم والتعليم » بوجه عام ، ينطبق على أمر « التاريخ وتعليم التاريخ » بطبيعة الحال

فنى ساحة التاريخ أيضاً نستطيع أن نقول : إن الأبحاث العلمية التى تستهدف معرفة الحقائق التاريخية شىء ... والشئون التعليمية التى تستهدف نشر تلك الحقائق شىء آخر . ومها بالغنا فى القول بأن (التاريخ)

يجب أن يستهدف معرفة الحقائق معرفة مجردة عن كل غاية ، لا نستطيع أن نقول ذلك فى « تعليم التاريخ » بوجه من الوجوه . بل لا بد لنا من القول بأن هذا التعليم يجب أن يوجه نحو غايات تربيوية واضحة . . . على كل حال

ويجب أن نلاحظ — زيادة على ذلك — أن الغايات التربيوية التى يمكن أن تعمل عملها فى ساحة «تعليم التاريخ» كبيرة وخطيرة جداً ، لأن المعلومات التاريخية تمتاز عن سائر المعلومات البشرية بالتأثيرات العميقة التى تحدثها فى الشعور القومى والوطنى و بالأدوار الهامة التى تقوم بها في تكوين القومية والوطنية

فإن شعور الأفراد نحو أمتهم ووطنهم لا يتأثر بمعرفتهم أو عدم معرفتهم للحقائق الطبيعية مثلاً . غير أن شعورهم هذا يتأثر تأثراً شديداً من علمهم أو عدم علمهم بالوقائع التاريخية التى تعاقبت على الوطن والأمة فى سالف الأزمان

ويمكننا أن نقول : إن الشعور القومى يستند على (الذكريات التاريخية) أكثر من كل شىء آخر . ونستطيع أن نؤكد بأن (الأفكار والمعلومات المتعلقة بالتاريخ) تلعب دوراً هاماً فى حياة الأمم وتؤثر تأثيراً كبيراً على سير الحادثات فى التاريخ

ولهذا السبب نجد أن الأمم المتمدينة بأجمعها تهتم بالتاريخ اهتماماً عظيماً ، فهى لا تكتفى بتذكير الماضى بواسطة الدروس والمؤلفات ، بل تبذل أنواع الجهود لإقامة التماثيل والأنصاب بقصد « تجسيد وتخليد الذكريات » ، كما تنتهز جميع الفرص لإقامة الاحتفالات لإحياء ذكر

بعض الوقائع التاريخية بقصد استثارة انتباه الشعب ، و إيقاد نار الذكريات القومية فى قلوب الناس

كما نشاهد أن الدول المستعمرة عند ما تستولى على أمة من الأمم تحاول أن تدعم استيلاءها العسكرى باستيلائها المعنوى ، وتعتبر السيطرة على (المعلومات التاريخية) من أهم وسائل هذا الاستيلاء . ولذلك حالما تنتهى من الأعمال التى تستهدف محو الحكومة المحلية وقواها المختلفة ، تأخذ فى تصويب سهامها نحو التاريخ القومى ، وتبذل كل ما لديها من الوسائل لإخفات صوت ذلك التاريخ ؛ وتستعمل كل ما تملك من الحيل لتبعيد ذاكرة الأمة عن تاريخها الخاص

كما نجد أن الشعور القومى عند الأمم المحكومة يأخذ فى الخمود والتضاؤل عند ما « يبسط النسيان » أجنحته على (التاريخ القومى) . ولا سيما عند ما تنصرف الأمة عن تاريخها الخاص إلى (التاريخ) الذى تلفقه وتعرضه عليها السلطة الحاكمة حسبما تقتضيه سياسة السيطرة والاستعمار ...

وأما عودة الشعور القومى إلى مثل هذه الأمم المحكومة ، فلا تتم إلا بعودة الذكريات التاريخية . ولا نغالى إذا قلنا : إن حركات الاستيقاظ والانبعاث ومجاهدات الاستقلال والاتحاد لا تبدأ إلا بتذكير الماضى واستلهام التاريخ ، بوجه عام . هذه حقيقة ناصعة تتجلى من بين صفحات التاريخ بوضوح تام

فإن (حب الاستقلال) يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ؛ والتوقان إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر إلى السيادة الماضية والمجد .

السالف ؛ والإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ؛ والنزوع إلى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة . هذه كلها حقائق ثابتة ، تشهد بها جميع التواريخ ، من تاريخ استقلال اليونان إلى تاريخ اتحاد الألمان ، ومن تاريخ ثورة الصرب إلى تاريخ وثبة الأتراك

ولذلك كله نجد أن جميع علماء التربية يتفقون فى القول بأن درس التاريخ من أهم وسائط التربية والوطنية والقومية

فهل يجوز والحالة هذه للمعلمين والمؤلفين أن يتعاموا عن ملاحظة تأثير المعلومات التاريخية فى هذا المضمار ، وأن لا يستفيدوا من تأثيرها هذا فى تقوية الروح القومى وتوجيه الشعور الوطنى ، نحو الأهداف التى يتطلبها مجد الأمة ونهوضها ؟

— ٣ —

يظن البعض أن استخدام دروس التاريخ كواسطة للتربية الوطنية والقومية وتكييف كتب التاريخ لمقتضيات هذه التربية ، إنما هو من الخطط والنزعات الخاصة بالأمم التى تُحكم بالديكتاتوريات الوطنية . وحقيقة الأمر أنه لا فرق بين هذه الأمم وغيرها بهذا الاعتبار . ونحن لا نعلم بوجود أمة بين الأمم الراقية تجردت عن هذه النزعة فأهملت الاستفادة من دروس التاريخ فى هذا المضمار

وإذا تجلت آثار هذه النزعة الآن عند فريق من الأمم بوضوح أكبر فما ذلك إلا لأن هؤلاء غيروا نظام حكمهم حديثاً ، فاضطروا لذلك

إلى القيام بتكييف تاريخهم لمقتضيات هذا النظام الجديد بصورة فجائية وعلى رءوس الأشهاد . فى حين أن غيرهم كانوا أقدموا على مثل هذا العمل قبلاً ، فأوجدوا لأنفسهم تاريخاً مكيفاً بمقتضيات الوطنية ، منذ مدة غير يسيرة من الزمن . فيمكننا أن نقول : إن الفرق بين الفريق الأول والفريق الثانى ينحصر فى تاريخ عملهم بهذه النزعة ، لا فى انقيادهم إليها أو انصرافهم عنها

فيجب علينا أن نعلم علم اليقين ، أن تكييف دروس التاريخ بمقتضيات القومية والوطنية ، من الخطط التى تعمل بها جميع الأمم من غير استثناء ، ومن الخطط التى تتحتم على جميع الأمم الناهضة بوجه خاص ...

هذا ويجب أن نلاحظ فى الوقت نفسه أن « التكيف » الذى نشير إليه لا يستلزم « الاختلاق » ، لأن « الانتخاب والتبريز » وحدهما يكفلان التكييف ، ويكفيان للتوجيه بوجه عام

وذلك لأن الوقائع التاريخية تؤلف سلسلة طويلة لا مجال لتحديدها ، بل شبكة معقدة لا حد لتعقيدها . فعدم ذكر الوقائع بأجمعها ـ تارة بصورة إرادية وطوراً بصورة اضطرارية ـ وانتخاب البعض وترك البعض منها ، حتى تفصيل البعض واختصار البعض . مما يغير منظر الوقائع وتأثيرها النفسى تغييراً كبيراً ، كما تتغير الألوان حسب مشيئة المصورين تبعاً لتغير أنواع الأصباغ التى تمزج بعضها ببعض من جهة ، ولتغير نسب هذا المزج من جهة أخرى

وَلذلك نستطيع أن نقول : إن عملية الانتخاب والتبريز ، إذا كانت من الأمور المهمة فى جميع فروع التعليم ، فهى فى منتهى الأهمية فى تعليم التاريخ .

لنذكر مثالاً بسيطاً لتوضيح تأثير الانتخاب والتبريز : لنفرض أننا نود أن نبحث عن علاقة فرنسا بوحدة إيطاليا . فإذا استعرضنا الحوادث التى تعاقبت فى إيطاليا منذ حروب نابليون إلى حرب السبعين ، ولاحظنا علاقة هذه الحوادث بسياسة فرنسا وأعمالها ، وجدنا أن هذه السياسة كانت مساعدة لوحدة إيطاليا فى بعض الأحوال والأدوار ، ومعرقلة لها فى أحوال وأدوار أخرى . فإذا ذكرنا النوع الأول من الوقائع دون أن نبحث عن النوع الثانى منها ، أو إذا سردنا النوع الثانى من الوقائع دون أن نتطرق إلى النوع الأول منها ، فسنوصل قراءنا وطلابنا إلى أحكام متخالفة متعاكسة فى هذا الباب . وهذا الاختلاف سيظهر حتى عند ما لا نهمل ذكر نوع من نوعى هذه الوقائع إهمالا تاماً ، بل نتوسع فى شرح أحد النوعين ونكتفى بإشارة مختصرة إلى النوع الآخر .

وهذا ما يحدث فعلاً فى تدوين وتدريس هذه الوقائع التاريخية فى مدارس كل دولة من هاتين الدولتين : فإن الفرنسيين يوجهون الأنظار إلى الوقائع التى كانت من نوع « المساعدة للوحدة الإيطالية » ويبرزون هذه الوقائع أكثر من غيرها . فى حين أن الإيطاليين ـ بعكس ذلك ـ يوجهون الأنظار إلى الوقائع التى كانت من النوع الثانى ، ويتوسعون فيها أكثر من غيرها . ولهذا السبب نجد أن رأى الإيطاليين فى هذه القضية يختلف عن رأى الفرنسيين اختلافاً بيناً

فى معظم الأحوال

وقد لاحظ الكثيرون من رجال الفكر والسياسة التأثير الشديد الذى يتأتى من دروس التاريخ فى إدامة الضغائن وإثارة الحروب بين الأمم فأخذوا يفكرون فيما يجب عمله فى هذا الباب . وهذا ما حمل عصبة الأمم على الاهتمام بالأمر اهتماماً خاصاً ، وتكوين فرع مختص بشؤون تعليم التاريخ بين جوانب معهد التعاون الفكرى الأممى . كما حمل عدداً كبيراً من المربين والمؤرخين على عقد مؤتمرات أممية للمداولة فى القضايا المتعلقة بدروس التاريخ

وإذا تتبعنا مناهج هذه المؤتمرات ونشراتها ، ولاحظنا أعمالها ومقرراتها نجد أنها لم تعارض قط فى « استخدام التاريخ كواسطة للتربية الوطنية » ؛ وكل ما طلبته من المعلمين والمؤلفين فى هذا الباب ، انحصر فى التماس السعى إلى تخليص دروس التاريخ وكتب التاريخ من الأبحاث والاتجاهات التى تثير الضغائن وتحول دون التفاهم والتقارب بين الأمم

دعت المعلمين والمؤلفين إلى توجيه جهودهم وأعمالهم إلى هذا الاتجاه على الدوام ، من غير أن تطلب إليهم أن يجردوا دروسهم وكتبهم من النزعات القومية والوطنية أو يتركوا الاستفادة من التاريخ فى التربية القومية والوطنية

وعلى كل حال ، فنحن نستطيع أن نؤكد بأن (تعليم التاريخ) يستهدف التربية الوطنية والقومية قبل كل شيء ، عند جميع الأمم ، بدون استثناء

— ٤ —

بعد هذه التفصيلات ، يجدر بنا أن نعود إلى أنفسنا ونتساءل عما يترتب علينا عمله فى دروس التاريخ ، نحن الناطقين بالضاد

نحن نعتقد بأن حاجتنا إلى الاستفادة من التاريخ فى التربية الوطنية والقومية تفوق حاجة جميع الأمم على الإطلاق . لأن العالم العربى الآن يزيد فى احتياجه إلى الاستفادة من دروس التاريخ وكتب التاريخ فى هذا المضمار زيادة هائلة

هذا ، ويجب أن لا ننسى من جهة أخرى أن أمر تأليف وتدريس التاريخ — فى العالم العربى — ظل بعيداً عن مقتضيات البحث العلمي والتربية الوطنية فى وقت واحد

وذلك لأن المؤلفات التاريخية العربية تستند على نوعين من المصادر : غربية وشرقية . والمصادر الغربية لم تتخلص تماماً من تأثير « النظرات الأوربية » التى نشأت على معاداة الشرق العربى واستضعاف العرب حتى الآن . وأما المصادر الشرقية فقد ظلت بعيدة عن التطورات العلمية والنزعات التربيوية فى وقت واحد

فيترتب علينا ، فى مرحلة النهضة التى وصلنا إليها ، أن نعيد النظر فى أبحاث التاريخ ، بروح علمى وشعور قومي ، وأن نوجد لأنفسنا بهذه الصورة مؤلفات تاريخية تجمع بين مقتضيات البحث العلمى و بين مطالب التربية الوطنية فى وقت واحد

العـــلم والوطنية

إلى الأستاذ توفيق الحكيم

قرأت الكلمة الرشيقة التى دبجتها يراعتك الفنانة فى صدد الرد على استفتاء مجلة « الرابطة العربية » حول مسألة « العلم للعلم ، أم العلم للوطنية ؟ »

قرأتها بإمعان واهتمام ، وأعجبت بثروة الأخيلة والتشبيهات التى زينتموها بها ؛ غير أننى لم أقتنع بصحة الأفكار والآراء التى سردتموها فيها . لقد قلتم بصيغة التأكيد الحاسم : « العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا ... »

إذاً فأنتم تعتقدون بأن العلم والوطنية مختلفان ؛ وزيادة على ذلك تدعون بأن اختلافهما هذا سيستمر إلى الأبد ، وسوف لا يزول فى يوم من الأيام

إن صحت هذه النظرية ، فإن كل من يحب العلم و يعشق الوطن فى وقت واحد ، يكون بمثابة الوثنى الولهان الذى يعبد الأوثان المتنافرة على حد سواء

أعترف لك أيها الأستاذ ، بأننى من الذين يدينون بدين العلم ودين الوطنية فى وقت واحد ؛ ومن الذين يقولون على الدوام بوجوب « نشر الروح العلمى » من جهة ، و « تقوية الشعور الوطنى » من جهة أخرى

أفلا تعذروننى — والحالة هذه — إذا ما اعتبرت نظريتكم من الخطورة بمكان ، فأخذت على عاتقى مناقشتكم فيها مناقشة شاملة لإظهار الحقيقة فى أمرها إلى العيان ؟

* * *

تدعون أيها الأستاذ ، فى كلمتكم بأن (العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا) ، وتحاولون أن تبرهنوا على هذا الدعوى بثلاث قضايا :

أن الوطنية هى الأنانية فى المجموع

والأنانية عمياء

والعلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء

إنى لا أود أن أبدأ المناقشة بالبحث عن مبلغ صحة هذه القضايا ؛ بل أود أن أسلم بها مؤقتاً ، لأبحث فيما إذا كانت تكفى للدلالة على صحة ما تدعونه فى هذا الباب :

تقولون (إن الوطنية هى الأنانية فى المجموع) ، فهل تستطيعون أن تقولوا فى الوقت نفسه بأن العلم ينكر الأنانية على الإطلاق ، ويتعامى عن تأثيرها فى حياة الحيوان والإنسان ؟

وتقولون (إن الأنانية عمياء) ، فهل تستطيعون أن تقولوا فى الوقت نفسه إن العلم يخالف كل ما هو أعمى ؟ أفتنكرون أن القوى الطبيعية أيضاً عمياء ؟

ثم تقولون (أن العلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء ، فهل تستطيعون أن تأتوا ببرهان يدل على أن الوطنية (خارجة عن حقائق الأشياء) ؟

كلا ؛ فإن الوطنية قوة اجتماعية حقيقية فعالة ، ليس إلى إنكارها من سبيل . . . آثارها تظهر للعيان على الدوام ، من خلال الوقائع التاريخية والحادثات الاجتماعية ، بكل وضوح وجلاء . فهي تدخل لذلك فى نطاق (حقائق الأشياء) ، كما تدخل فيه سائر القوى والمؤثرات الطبيعية ، كالوراثة والمناعة والمغناطيسية والجاذبية

فإذا أردنا أن نجعل (الوطنية) موضوع بحث علمى ، يجب علينا أن ندرسها كما ندرس الحادثات والقوى الطبيعية بوجه عام ، والحادثات والقوى الاجتماعية بوجه خاص

ولا جدال فى أن العلم يدرس الكون وحادثات الكون (بحياد تام) . يدرس خواص الأشياء ، ويتتبع سير الحادثات ؛ يتحرى أسبابها ، ويستقصى قوانينها ، وقد يتنبأ فى بعض الأحوال بمستقبلها أيضاً استناداً إلى القوانين التى اكتشفها ، والعوامل التى أظهرها ... إنه يدرس كل ذلك ، دون أن يقدم على تحسين أو تقبيح الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه ، ودون أن يتأثر بموافقة أو مخالفة تلك الحقائق لمصالحنا المادية أو لنزعاتنا الفكرية بصورة من الصور ، لأن مهمة العلم تنحصر فى معرفة حقائق الأشياء واكتشاف قوانين الحادثات ، ولا يتعدى ذلك إلى تحبيذ أو تقبيح تلك الحقائق أو استحسان أو استهجان تلك القوانين ...

لنا أن نتخيل كوناً غير هذا الكون ؛ ولنا أن نتصور مجتمعاً غير هذا المجتمع ، ولنا ألا نكتفى بالتخيل والتصور بهذه الصورة ، بل نوصل الأمر إلى درجة التمنى : فنتمنى أن يتحول الكون إلى الحالة التى تخيلناها ، وأن يتطور المجتمع إلى الهيئة التى تصورناها . ولنا أن نذهب

إلى أبعد من ذلك أيضاً : لنا أن نعتبر ما تخيلناه وتصورناه فى هذا الباب مثلاً أعلى نسعى إلى تحقيقه بنشاط وحماسة ، وهدفاً أسمى نمشى نحوه بقوة واندفاع . لنا أن نفعل كل ذلك ، على أن نعلم فى الوقت نفسه بأن تفكيرنا وعملنا فى هذا السبيل يكون من نوع الشعر أو الفلسفة أو السياسة ، فلا يدخل فى نطاق (البحث العلمى) بوجه من الوجوه

لكم ، أيها الأستاذ ، أن تتمنوا زوال الأنانية من الأمم ، ولكم أن تصبوا نحو رؤية مجتمع تتغلب فيه مصلحة الدول على مصلحة الدولة الواحدة مهما كانت قوة هذه الدولة ومكانتها ، ولكم إذا شئتم أن تقوموا بدعاية ترمى إلى تضحية مصلحة الدولة الواحدة فى سبيل مصلحة سائر الدول ؛ فإننى لا أناقشكم فى كل ذلك فى هذا المقام ؛ غير أنى أقول بأنه لا يحق لكم أن تعزوا تمنياتكم ونزعاتكم هذه إلى (العلم) فتقولوا العلم لا يتفق مع الوطنية

فإننا مهما تعمقنا فى تحليل طبيعة العلم من جهة ، وطبيعة الوطنية من جهة أخرى ، لا نجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بحال من الأحوال

* * *

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من المناقشة ، أرى أن نترك هذه الأحكام الإنّية جانباً ، لنستقرئ الوقائع التاريخية ، فنرى ما إذا كان العلم والوطنية قد اتفقا أم اختلفا فعلاً فى مختلف الأجيال

إننى أستطيع أن أذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على اتفاق العلم مع الوطنية ، وخدمة العلم للوطنية بصورة فعلية . ولعل أقدم هذه الوقائع تعود إلى عهد (أرخميديس) الشهير ، وتتعلق بقصة مقاومته للرومان .

فإن هذا العالم الكبير الذى يعتبر من آباء علم الميكانيك ، والذى يتردد اسمه حتى على ألسنة طلاب المدارس الابتدائية فى دروس الطبيعة والأشياء . هذا العالم الكبير لعب (بعلمه) دوراً هاماً فى تاريخ وطنه (سيراكوزا) . فعند ما حاصرها الرومان وضع كل ما عنده من علم وقوة تفكير واختراع فى خدمة وطنه ، فاستعمل المنجنيقات والمرايا المحرقة لتخريب أسطول المحاصرين ؛ فمكن المدينة من الدفاع عن نفسها دفاع الأبطال . إذن فالعلم والوطنية اتفقا فى نفسية أرخميديس فى أمر الدفاع عن الوطن المحصور ، ولم يختلفا بوجه من الوجوه

إن الثورة الفرنسية أيضاً تعطى لنا مثالاً بارزاً عن تعاون العلم والوطنية . فعند ما تألبت الدول الأوربية على فرنسا بقصد خنق الثورة فى مهدها ، جابهت الدولة المذكورة مشكلة كبرى ، كادت أن تصبح مميتة لولا مساعدة العلم والعلماء لها . فإن الحصار الذى أحاط فرنسا بالنار والحديد من كل الجهات ، حرم رجال الثورة إمكان استيراد المواد الأصلية الضرورية لصنع الصابون والبارود والمدافع والأسلحة . عندئذ فكرت لجنة الدفاع العام فى الاستفادة من علماء الكيمياء ، فاستنهضت هممهم لتخليص الوطن من محنته هذه . وهؤلاء - ونخص منهم بالذكر (برتوله) و (فوركروا) - وجهوا أبحاثهم العلمية وجهودهم الفكرية نحو إيجاد الطرق التى تساعد على تحضير المواد المذكورة بصورة صناعية من المواد الموجودة داخل البلاد فنجحوا فى مسعاهم هذا ، وخدموا وطنهم بذلك أجل الخدمات

بعد ذلك نستطيع أن نقول إن (خدمات العلم للوطنية)

أصبحت من الأمور الاعتيادية التى يصعب إحصاؤها ؛ فإن صحائف تاريخ العلوم من جهة وتاريخ الدول من جهة أخرى ، مملوءة بأمثلة بليغة على ذلك ... ولا سيما ما حدث منها خلال الحرب العالمية

ربما تقولون ، أيها الأستاذ ، (إن هذه كلها من الأمور التطبيقية وستكررون فى هذا المقام رأيكم فى (العلم وتطبيق العلم) ، لأنكم قلتم فى كلمتكم — التى نحن فى صدد البحث فيها — (فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم ، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها . تلك لذتهم الكبرى ، أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم ، فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة)

فاسمحوا لى أن أقول : إن الطبيعة بعيدة عن مثل هذه التقسيمات القطعية فى أمر « العلوم وتطبيقاتها » فإن استغلال نتائج العلوم — بعد اكتشافها — لا يكون دائماً من عمل رجال آخرين غير العلماء المكتشفين ؛ بل كثيراً ما نشاهد فى تاريخ العلوم ، أن العالم الباحث بعد أن يتوصل إلى معرفة الحقائق واكتشاف القوانين ينتقل بنفسه إلى التفكير فى الفوائد المتوقعة منها ، ويبحث عن تطبيقاتها . فهل يحق لنا — فى هذه الحالة — أن نخرجه من عداد (العلماء) بحجة أنه لم يكتف باكتشاف الحقيقة ، بل تعدى ذلك إلى التفكير فى الاستفادة منها ؟ هل يحق لنا مثلاً ألا نعتبر أرخميديس من العلماء « الحقيقيين » بالرغم من نظرياته واكتشافاته العلمية الكثيرة — لمجرد إقدامه على تطبيق بعض القوانين التى اكتشفها ؟ وهل يحق لنا أن نخرج « برتوله » من عداد العلماء

بالرغم من نظرياته وقوانينه المشهورة — لمجرد عدم اكتفائه باكتشاف تلك القوانين — وإقدامه على توجيه بعض أبحاثه العلمية إلى الاتجاه الذى تتطلبه منه خدمة الوطن ؟

كلا ... فإن مبدأ العلم للعلم يتطلب البحث عن الحقائق لنفسها ولو لم ينتظر فائدة من وراء معرفتها ، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن الاستفادة منها ، كلما أمكن ذلك

إن المبدأ المذكور يتطلب الاعتراف بالحقائق الثابتة ، مهما كانت نتائجها ؛ غير أنه لا يتطلب الامتناع عن توجيه الأبحاث العلمية نحو الحقائق التى ينتظر فائدة وطنية من وراء معرفتها ...

***

هذا ، وإتماماً لاستقراء الوقائع التاريخية ، يجب علىّ أن أشير إلى بعض الحوادث التى تدل على شىء من المخالفة والمشادة بين رجال العلم ورجال الوطنية فى بعض الأحوال

إن تاريخ الثورة الفرنسية يعطينا مثالاً بارزاً لذلك . فإن رجال الثورة أعدموا « لاڤوازيه » الذى يعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديث ، و « بايين » الذى اشتهر بأبحاث فلكية هامة ؛ وسجنوا « كوندورسه » الذى كان من كبار المفكرين ، فاضطروه إلى الانتحار تخلصاً من المقصلة والعذاب ...

غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذه الوقائع لا تدل على خصام بين العلم والوطنية من حيث الأساس . لأن العالِم قلما يتفرغ إلى الأبحاث العلمية تفرغاً مطلقاً ؛ فإنه لا يتجرد عادة عن الحياة الشخصية ، بل كثيراً

ما يقوم ببعض الأعمال السياسية أيضاً . كما أن تفكيراته لا تكون علمية فى كل الموضوعات . إذ أنه قد يفكر كما يفكر سائر الناس فى المسائل التى تخرج عن نطاق اختصاصه ، ولا سيما فى الأمور التى تدخل فى ساحة الدعايات الحزبية والأعمال السياسية . فاذا ما حدثت مخالفة بينه وبين رجال الوطنية ، يكون قد حدث ذلك بالرغم من علمه ، لا بسبب علمه

فإن « لافوازيه » مثلا كان من النبلاء الذين يحملون لقب المركيز ، كما أنه كان من الملتزمين الذين كانوا يشتغلون بجباية الضرائب من الناس . فإذا ما اتهمه رجال الثورة الفرنسية — بحق أو بغير حق — بالخيانة للوطن وحاكموه فأعدموه ، كان ذلك من جراء صفاته وأعماله هذه ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية ...

وكذلك الأمر فى (إينشتاين) فإن أبحاثه العلمية ونظرياته الفلسفية لم تجرده عن النزعات الطائفية ولم تبعده عن الأعمال السياسية . فإذا وجد رجال الحكومة الوطنية الألمانية — بحق أو بغير حق – فى سلوكه ما يضر بسلامة الوطن ، كان ذلك من جراء أعماله السياسية لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

* * *

وربما كان من المفيد أن نذكر رأى بعض العلماء ، لتنوير هذا البحث أكثر من كل ما تقدم . وربما كان رأى (باستور) الشهير من أبلغ الشهادات فى هذا الباب :

إن هذا العالم الذى يعتبر بحق من الأعاظم الذين تجسم وتجسد فيهم الروح العلمى بأكمل معانيه ، والذى قام بسلسلة أبحاث تعد بحق من أبرز

وأنجع الأمثلة للطريقة التجريبية ... هذا العالم الكبير كان وطنياً متحمساً طول حياته . وقد قال فى خطبة بليغة ألقاها فى أحد المؤتمرات الأممية العبارات التالية :

« لا وطن للعلم ، أو بالأحرى ، وطن العلم يشمل العالم بأجمعه . ومع هذا لكل عالم وطن . وعلى رجل العلم أن يهتم بكل ما يساعد على مجد وطنه . وفى كل عالم حقيقى كبير تجدون دائماً وطنياً كبيراً »

* * *

وبعد الانتهاء من هذه الأبحاث ، اسمحوا لى أن أعود إلى إحدى القضايا التى كنت سلمت بها مؤقتاً ، تسهيلاً لحل المسائل خطوة خطوة ، وهى أولى القضايا الثلاث التى ذكرتموها للبرهنة على عدم إمكان اتفاق العلم والوطنية :

« الوطنية هى الأنانية فى المجموع » .

إننى لا أنكر صحة هذه القضية من حيث الأساس . غير أننى أرى من الضرورة أن نتمها بقضية ثانية فنقول :

« الوطنية هى الأنانية فى المجموع ، غير أنها الإيثار فى الأفراد »

نعم إن الوطنية هى الإيثار — بالنسبة إلى أفراد البشر ، ولو كانت من نوع الأنانية بالنسبة إلى الكتل البشرية . ونستطيع أن نقول : إنها أرقى وأنقى أشكال الإيثار . فإن مظاهر الإيثار لا تتجلى فى ساحة من ساحات أعمال الإنسان ، بالتنوع والسمو والقوة التى تتجلى بها فى ساحة الوطنية . وأما مظاهر الإيثار التى تتولد من الشعور الأممى

فتبقى بجانب ذلك شيئاً غير مذكور . . .

إن هذه المسألة تحتاج إلى بحث خاص ، لا أود أن أتوسع فيه الآن ؛ غير أننى أود أن أختم هذه الرسالة بكلمة وجيزة قالها (جان جاك روسو) بأسلوبه الخلاب :

بعض الناس يحبون أبناء الصين ، وذلك لكي يتخلصوا من الواجبات الفعلية التى يتطلبها منهم حب أبناء وطنهم الأقربين .

رد على تصريحات الشيخ المراغى

[حديث نشر فى جريدة الاستقلال ببغداد]

« ليس لي رأى فى الوحدة العربية ... لا أشتغل بها ... لست من أنصارها ، ولا من أعدائها »

لو نقل إلى ناقل هذه الكلمات دون أن يذكر لى اسم قائلها ، وطلب إلى أن أحزر — بقوة العقل والمنطق — جنسية المفكر الذى قالها . لما ترددت فى الحكم بأنه من منتسبى أمة من الأمم الكثيرة التى تعيش بعيدة عن العالم العربى الفسيح دون أن ترتبط به بصلة من الصلات الجغرافية أو التاريخية أو القومية أو الثقافية . . . ولأخذت أستعرض فى ذهنى ، تلك البلاد النائية — من السويد إلى الترنسفال ومن التبت إلى الكانار — دون أن أقف لحظة واحدة فوق ناحية من نواحى آسيا العربية أو أفريقيا العربية

ولهذا السبب ، دهشت دهشة كبيرة ، عند ما رأيت أن هذه الكلمات تحمل توقيع « محمد مصطفى المراغى » وهو الشيخ المشهور الذى يرأس أقدم المعاهد العلمية القائمة فى البلاد العربية . . . وتذكرت بأن ذلك المعهد قام بخدمة تاريخية خطيرة فى حفظ حياة الآداب العربية فى دور انحطاطها الطويل ... وهيأ لها سبل النهوض فى دور بعثها الأخير

غير أن دهشتى هذه زادت وتضاعفت ، عند ما قرأت البراهين التى

أراد الأستاذ المراغى أن يبرر بها هذه الكلمات

لقد قال الأستاذ المراغى ، فى الكتاب الذى أرسله إلى جريدة المصرى ما يأتى :

« غير خاف عليكم أن الدين لم يذهب إلى العصبية الجنسية ، ولم يفرق بين العربى وغير العربى ، وجعل الأمة الإسلامية وحدة لا فرق بين أجناسها ... »

إننى لا أفهم كيف يستطيع الأستاذ المراغى أن يعتبر ذلك برهاناً على صدق دعواه ؟

إذا كان الدين لم يذهب إلى العصبية الجنسية ، فهل يذهب إلى الصبية الإقليمية ؟

واذا كان الدين لايفرق بين العربى وغير العربى ، فهل يسوغ التفريق بين المصرى والشامى والعراقى ؟

وإذا كان الدين قد جعل الأمة الإسلامية وحدة لا فرق بين أجناسها ، أفلا يكون قد جعل فى الوقت نفسه ، الأمة العربية أيضاً وحدة لا فرق بين شعوبها ؟

أنا أفهم أن يكون الأستاذ المراغى ممن لا يكتفون بالوحدة العربية وحدها ، وممن ينزعون إلى وحدة أبعد وأشمل منها ، فيسعون وراء وحدة إسلامية عامة . غير أننى لا أفهم كيف يستطيع أن يتخذ هذه النزعة وسيلة لإهمال الوحدة العربية ، ومبرراً للدعوة إلى عدم الاشتغال بها ؟

إننى لا أود أن أناقش الأستاذ المراغى فى إمكان أو عدم إمكان تحقيق الوحدة الإسلامية ، كما لا أرى حاجة للدخول معه فى نقاش حول

مسألة الجنسية فى الإسلام ولا للاعتراض على قوله (بأن الاتجاه بالتفكير إلى الوحدة التى يتطلبها القرآن ، هو الذى يتحتم على علماء المسلمين » مع كل هذا لا أرى علاقة منطقية بين « دعوة علماء المسلمين إلى العمل فى سبيل الوحدة الإسلامية » و بين دعوتهم « إلى عدم الاشتغال بالوحدة العربية »

كيف يجوز لأحد أن يقول — يتحتم على علماء المسلمين أن يسعوا لتحقيق الوحدة بين العربى والإيرانى والهندى والتركى ، ولا يجوز لهم أن يشتغلوا بتحقيق الوحدة بين الشامى والمصرى والحجازى ؟

كيف يمكن لأحد أن يأمل بتكوين وحدة من البلاد الإسلامية التى تتكلم بلغات مختلفة ، دون تكوين وحدة من البلاد التى تتكلم بلغة واحدة ، ولا سيما التى تتكلم بلغة القرآن ؟

إنى أعتقد بأن الذين يتجهون بتفكيرهم إلى الوحدة التى يتطلبها القرآن ـ حسب تعبير فضيلة الشيخ المراغى ـ لا يستطيعون أن يهملوا الوحدة العربية ـ دون أن يناقضوا أنفسهم ـ فيترتب عليهم أن يشتغلوا بالوحدة العربية ، فى سبيل الديانة الإسلامية ، إن لم يكن فى سبيل العزة القومية .

« تم الكتاب »

(طبع بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)